فرانز كافكا

الانمساخ

ترجمة: سماح الجلوي

عصير الكتب
للنشر والتوزيع

الانمساخ

الكتـــــاب: الانمساخ
المـــؤلـــف: فرانز كافكا
المـــترجـم: سماح الجلوي
مـــراجـعـة: محمد الجيزاوي
تنسيق داخلي: عمر جوبا
الطبعة الأولى: يناير 2020
رقم الإيـــداع: 1640 / 2020
I . S . B . N: 978-977-992-090-0

المدير العام محمد شوقي
مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع الحقوق محفوظة ©

عصير الكتب للنشر والتوزيع

فرانز كافكا

الانمساخ

ترجمة

سماح الجلوي

مراجعة

محمد الجيزاوي

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

إهداء المترجمة

إلى فرانز كافكا

-١-

ذات صباح استيقظ «جريجور سامسا» من نوم عكَّرته الأحلام المزعجة، ليجد نفسه وقد تحوَّل إلى حشرة مرعبة، مستلقيًا على ظهر صلب أشبه بدرع، ولو أنه رفع رأسه قليلًا؛ لاستطاع رؤية بطنه البنية المُقَبَّبَة قليلًا، وقد قُسمت بواسطة تقوسات طولية إلى أجزاء صلبة، ومن فوقها أخذ الغطاء ينزلق دون أن يستطيع منع ذلك، وعلى نقيض جسده الضخم كانت سيقانه دقيقة بائسة، تتراقص أمام عينيه بحركة لا إرادية منه.

فكر سامسا «ما الذي حدث لي؟»

بالطبع لم يكن حلمًا؛ فكل الدلائل تؤكد تلك الحقيقة، فها هو يستلقي بداخل حجرته الآمنة المحاطة بأربعة جدران يعرفها تمامًا، كحجرة معدة لاحتياجاته البشرية، وهي وإن كانت ضيقة جدًّا فإنها قطعًا لا تُعد مأوى لحشرة، وها هي مجموعة عينات النسيج، ما زالت فوق الطاولة، إنه هو نفسه سامسا مندوب المبيعات الجوَّال، وفوق أحد الجدران عُلقت صورة كان قد اقتطعها في وقت سابق من مجلة مصورة، ووضعها بداخل إطار ذهبي جميل، الصورة تُظهر سيدة متأنقة بقبعة من الفراء، ومتلفحة بفرو شبيه بأفعوان، ترفع ذراعها الذي دُسَّ أغلبه بداخل معصم من الفرو.

توجه جريجور ببصره إلى خارج النافذة؛ فرأى السماء غائمة وكئيبة، وصوت قطرات المطر المتساقطة على النافذة تزيد من شعوره بالوحشة، فأشاح ببصره عن النافذة، وسأل نفسه: «ماذا لو عدت إلى النوم لأتخلص من كل هذا العبث؟»

ولكن حتى النوم أصبح مستحيلًا، فهو - وكما تعوَّد - لا يستطيع النوم إلا على جانبه الأيمن، وفي وضعه الحالي لا يمكن لهذا أن يحدث.

فكلما جاهد بكل ما امتلك من قوة أن يطرح نفسه على الجانب الأيمن؛ ما كان يلبث حتى يتأرجح على ظهره المدرع، ليعاود هيئته إلى الخلف مستلقيًا على ظهره من جديد.

وعلى الأرجح فقد حاول فعل ذلك لمائة مرة، في كل مرة يتعمد أن يغمض عينيه؛ كي لا يرى سيقانه المتخبطة ببعضها، ولم يتوقف عن المحاولة إلا عندما بدأ يشعر بألم ثقيل لم يعرف مثله من قبل.

«يا إلهي!» قالها وفكر بحاله «يا لهذه المهنة التي تخيرتها، والتي تستلزم الجهد والسفر يومًا بعد يوم! إن أداء العمل بهذا النمط يستلزم جهدًا أكبر من العمل في المتجر مثل بقية العمال، وفوق كل هذا تأتي متاعب الفرد من القلق خوفًا من فوات مواعيد القطارات، إلى وجبات طعام سيئة وغير منتظمة، إضافة إلى الاتصال الدائم بالغرباء؛ مما يصعب معه عمل علاقات إنسانية عميقة، أو على الأقل الاحتفاظ بالود لوقت أطول».

«فليذهب كل هذا للجحيم!» قالها، ثم شعر بوخزة طفيفة أعلى بطنه، فدفع نفسه إلى ظهر السرير؛ ليتمكن من رفع رأسه بشكل أفضل، زاحفًا للخلف على ظهره ببطء؛ فرأى بطنه مغطاة بالكثير من البقع البيضاء الصغيرة التي لم يفهم سرها، وعندما حاول تحسس مكان الوخزة بواحدة من أرجله سحبها سريعًا إلى الخلف، حيث غلبته قشعريرة باردة بمجرد لمسها.

فانزلق يائسًا إلى وضعيته السابقة.

وعاد لأفكاره الذاتية: «إنه الاستيقاظ مبكرًا كل يوم، ذاك الذي يجعل من المرء إنسانًا غبيًّا؛ لذا وجب على الإنسان أخذ قسطٍ كافٍ من النوم، إن التجار الجائلين يعيشون في رغد مثل حريم السلطان، فعلى سبيل المثال عندما كنت أرجع إلى نزل الاستضافة خلال الفترة الصباحية، وذلك لنسخ عقود العملاء؛ فإنني كنت أشاهد هؤلاء السادة ممن يعملون في مثل وظيفتي دائمًا مجتمعين حول طاولة الطعام لتناول الفطور، وجب عليّ أن أجرب تلك الطريقة مع مديري، وحينها كنت سأضمن حصولي على طرد مؤكد من العمل، ولكن من يدري؟ فلربما كان ذلك هو الصواب، وهو الأفضل لي.

ولولا التزامي أمام والديّ؛ لكنت أبديت ملاحظاتي منذ زمن، ولصعدت لمديري، وأخبرته بكل ما يجول في عقلي، وكل ما أردت قوله منذ زمن، واحتبسته بداخل صدري، بالطبع سوف يقفز كعادته فوق المكتب كالبهلوان، إنني لم أجد مديرًا يفعل ذلك الفعل المنحرف المضحك مثله، يجلس فوق مكاتب مرؤوسيه، يحدثهم من أعلى، وهم أسفله، إضافة إلى ثقل سمعه الذي يستوجب على الموظف أن يقترب منه حد الالتصاق؛ ليسمعه كلامه.

حسنًا، يظل دومًا هنالك أمل، ففور جمعي المال لتسديد الدين الذي على والديّ له – وهذا لن يحدث إلا على أقل تقدير في غضون خمس أو ست سنوات –عندئذ سأبوح بمكنون صدري كله، ولن يردعني شيء، وحينها سأكون قادرًا على إحداث التغيير الكبير في حياتي، ولكن بادئ ذي بدء وجب عليّ الآن النهوض للحاق بقطاري الذي ينطلق في الساعة الخامسة».

ثم تحول بعينيه لساعة المنبه القابع فوق صندوق بجواره، وما إن وقع بنظره عليه؛ حتى أسرَّ بداخله «يا إله السماوات!» فعقارب الساعة التي تتحرك متقدمة للأمام تشير إلى السادسة والنصف، فهل لم يعمل الجرس من الأساس؟ لكن كيف؟ إنه قادر وهو على فراشه أن يرى ضبط المنبه على الساعة الرابعة كما يجب أن يُضبط، بالتأكيد قد رنَّ، ولكن هل من الممكن أن يغط في النوم الهادئ إلى جوار ضوضاء دقات جرس المنبه؟

صحيح أنه لا يشعر بأنه نَعِمَ بنوم هادئ، إلا أن الشواهد كلها تؤكد أن نومه كان عميقًا، ما الذي يجب عليه فعله الآن؟ إن القطار التالي سينطلق في تمام السابعة، فلو قُدِّرَ له أن يلحقه؛ لوجب عليه الإسراع بشكل جنوني، إضافة إلى أنه لم يحزم مجموعات عينات الأنسجة بعد، إضافة إلى شعوره بالخمول التام، ولو افترض أنه لحق بالقطار لن يعني هذا أنه سيتجنب غضب المدير

وتوبيخه، بل من المؤكد أن عامل المكتب قد أرسل للمدير تقريره منذ وقت طويل بأن جريجور تخلف عن قطار الخامسة، عامل المكتب اللعين، ذاك الرجل ضعيف الشخصية والفهم.

ماذا لو بلَّغ أنه مريض؟ لكن هذا الادعاء سيكون غريبًا جدًّا، ومشكوكًا فيه بالنسبة لجريجور؛ إذ إنه طيلة الخمس سنوات الماضية لم يبلغ بأنه مريض ولو لمرة واحدة، وإنه لأمر مخجل أن يقوم بهذا الفعل، إضافة إلى أن رئيسه بالتأكيد سيزوره مع طبيب من التأمين الصحي للشركة، وليس من المستبعد أن يُتَّهم والداه؛ كونهما أنجبَا ابنًا كسولًا، وسوف يقبل توصيات الطبيب ليس لما سيقره عن حالته، ولكن لأن الطبيب يرى أنه لا يوجد موظف يمرض؛ فكل الموظفين عنده أصحاء، ولكن لا يريدون العمل بادعاء المرض.

والأكثر من هذا فالطبيب في حالته هذه هل سيكون مخطئًا تمامًا؟ إن جريجور في الحقيقة - وبغض النظر عن استغراقه في النوم، وشعوره بالكسل - بصحة جيدة. حتى إنه أصبح يتضور جوعًا، وشهيته منفتحة للطعام أكثر من أي صباحٍ سابق، فكيف يكون مريضًا؟

وبينما كان جريجور يغوص في أفكاره العميقة الدائرة بخلده عن مشاريع مستقبلية خططها، وهو ما يزال في فراشه، لم يكن يمتلك حتى القدرة على أخذ مجرد قرار هَيِّنٍ مثل مغادرة هذا الفراش، دقت ساعة المنبه معلنةً عن السابعة صباحًا، ومع دقاته نما لسمعه صوت طرقات حذرة على الباب بالقرب من رأسه، تبعها صوت أمه:

«جريجور، إنها الساعة السابعة، ألن تسافر هذا الصباح؟»

يا للصوت الدافئ الرقيق! والذي معه صُدم جريجور من صوته وهو يجيب عليها؛ إنه من الصعب تمييز إن كان هذا الصوت هو نفسه صوته في السابق أم لا، لقد خرج مع حشرجة مؤلمة يصعب ضبط إيقاعها، تبدو الكلمات في بدايتها مشكلة ومنتظمة، بعدها يظهر نوعًا من الصدى يجعل الكلمات تخرج بعد ذلك مشوشة تاركة المستمع في لبس من أمره إن كان قد سمع شيئًا بالفعل أم لا.

أراد جريجور إعطاء الإجابة الشافية والشرح الوافي لكل شيء، ولكن في ظل ظروفه الراهنة اقتصرت إجابته على قول:

«نعم أمي، نعم، شكرًا لكِ، سأنهض الآن».

ومن حسن الحظ أن التغير الذي طرأ على صوت جريجور لن يكون ملحوظًا بالنسبة لشخص يقف خارج الباب الخشبي؛ فاطمأنت الأم لهذا الشرح المقتضب، ورحلت بعيدًا عن حجرة الابن، لكن هذه المحادثة القصيرة نبهت أحد أفراد الأسرة بأن جريجور وعلى عكس المتوقع ما يزال بالمنزل، وعلى أثر تلك المفاجئة قرع الوالد أحد الأبواب الجانبية بكفيه في رفق.

«جريجور، جريجور».

هتف الوالد، ثم أردف بقلق:

«ما الخطب؟»

وبعد برهة وأثناء طرقه الباب هتف عليه مرة أخرى، ولكن هذه المرة في نبرة أشد قلقًا:

«جريجور، جريجور»

عند الباب الجانبي وقفت أخت جريجور، وبتوسل هتفت:

«جريجور، هل أنت بخير، هل تحتاج لشيء؟»

أجاب جريجور إجابة واحدة لكلا الطرفين:

«أنا أجهز نفسي، وسأخرج الآن».

وقد اجتهد بكل ما يمتلك من قوة في ضبط صوته وإزالة الغرابة عنه، نطق مخارج الحروف في حذر، واضعًا الفواصل الزمنية البعيدة بين كل كلمة وأخرى منفردة، مُتَّكِئًا على نهايات الكلمات.

وعلى هذا رجع والده إلى إفطاره، ولكن الأخت ظلت واقفة تهمس:

«جريجور، افتح الباب، إنني أرجوك أن تفتح الباب».

إلا أنه لم يستجب لتوسلات أخته، وشعر بالامتنان لعادته التي اكتسبها من ترحاله كثيرًا، ألا وهي غلق الأبواب ليلًا حتى وهو في بيته.

كان عليه أولًا أن ينهض دون أن يحدث ضجة بسبب وضعيته التي أصبح عليها، ثم ارتداء ملابسه، لكن عليه قبل ذلك أن يتناول فطوره كما هي العادة، وبعد ذلك يمكن أن يتخذ بقية القرارات بيسر، لكن المشكلة التي يواجهها الآن، وما زالت قائمة أنه على سريره بنفس الوضعية.

ثم تذكر أنه عادة ما كان ينتابه الشعور بهذا الألم الطفيف فور استيقاظه بسبب اتخاذه وضعيات خاطئة في النوم، وبعد نهوضه كان

يكتشف أن شعوره بالألم ليس سوى وَهِمٌ يزول بقليل من النشاط.

ولم يكن لدى جريجور أدنى شك من أن التغير الطارئ على صوته ما هو إلا أثر إصابته بنوبة برد جراء سفره الدائم، وكان التخلص من الأغطية مسألة بسيطة؛ فلم يكن عليه سوى أن ينفخ نفسه قليلًا للأعلى، ومن ثم ستنزلق الأغطية من تلقاء نفسها، لكن الحركة التالية كانت أصعب في وضعه الاستثنائي هذا، خاصة أنه أصبح أضخم؛ فلقد اعتاد في السابق على استخدام يديه لرفع نفسه بشكل طبيعي، لكنه الآن بلا ذراعين، ولا يمتلك سوى تلك الأرجل الصغيرة العديدة دائمة التحرك باضطراب في اتجاهات مختلفة دون أدنى مقاومة منه، فلو أنه حاول ثني واحدة؛ انبسطت السابقة من تلقاء نفسها بشكل مستقيم، أما إذا استطاع التحكم في تلك الساق المتمردة؛ فإن بقية الأرجل تنطلق متحدة كما لو أنها تحررت من محبسها متحركة بشكل عشوائي مؤلم للغاية، لكنه احتمل الألم مرددًا:

«هذا الألم أهون من البقاء في الفراش بلا معنى».

أول حركة أراد أن يقدم على فعلها هي الخروج بالجزء السفلي من جسده من السرير، ذلك الجزء الذي لم يكن قد سبق له التعرف عليه، ولا يمتلك عنه أي تصور، كل ما يعرفه عنه أنه عَصِيٌّ على الحركة، وبدا له أن حركته إلى جانب صعوبتها أصبحت أبطأ للغاية.

وعلى حين غرة وفي نوبة هياج فجائية أودعته لحالة من اللامبالاة؛ جعلته يندفع بجسده كله إلى الأمام بكل ما أُوتي من قوة، ولسوء الحظ أنه اختار الاتجاه الخاطئ مرتطمًا بعامود حافة السرير، وبواسطة هذا الألم الحارق الذي شعر به أدرك أن الجزء السفلي من جسده هو الأكثر حساسية.

وعلى هذا فقد حاول جريجور أن يتحرك بجزعه أولًا إلى خارج السرير، فحرَّك رأسه بحذر نحو الحافة، تحرك بسهولة وتَأَنٍّ، وبالرغم من اتساع عرض مقدمة جسده وثقله؛ فإنه استطاع أن يتبع كتلة الجسد بالرأس في حركة دورانية بطيئة؛ حتى أصبح رأسه معلقًا في الهواء خارج الفراش، فشعر بالذعر، فإنه لو تقدم أكثر ربما يهوي ساقطًا، وحينها لن تنجو رأسه من الارتطام والتأذي إلا بمعجزة، وهو لن يَدَعْ نفسه يسقط بأي ثمن، بقاؤه في الفراش خير له من فقدان الوعي.

أخذ منه الرجوع إلى وضعيته السابقة نفس الجهود السابقة؛ استلقى فوق فراشه بأنفاس مضطربة، تأكله الحسرات، وهو يرى قوائمه القصيرة تتخبط بشكل عشوائي، فلو سُمِحَ له بأي طريقة إيجاد حلٍّ لتهدئة تلك الحركات لما تردد، إن السبيل الأوحد والأعقل هو التضحية بأي شيء في مقابل تحرير نفسه.

في الوقت نفسه لم يَنْسَ أن يذكر نفسه بأن التفكير الهادئ وأخذ الاعتبارات المناسبة لهو أفضل بكثير من دفع نفسه إلى نهايات يائسة. في تلك اللحظات صَوَّبَ بصره نحو النافذة يدقق في تفاصيل المشهد، لكن الضباب الصباحي حجب عنه رؤية الجانب الآخر من الشارع الضيق، الأمر الذي جلب عليه مزيد من الاكتئاب والتعاسة، عندما رَنَّ جرس المنبه من جديد؛ قال في نفسه: «إنها الساعة السابعة، الساعة السابعة ولا يزال الضباب يستعمر الأجواء» ثم سكن لبرهة يأخذ نفسًا عميقًا كأنما ينتظر رجوع الأمور إلى نصابها بفعل السكون كما كانت من قبل حقيقية ومنطقية.

قرر عدم الاستسلام، وفَكَّرَ بعقلانية أكثر فيما ينتظره:

«من الضروري أن أكون قد نهضت من فراشي قبل أن تدق الساعة السابعة والربع، وليس من المُستبعد أن يكون المدير في تلك اللحظة الراهنة قد أرسل مندوبًا؛ ليسأل عني ليعرف ما حدث لي؛ فأبواب العمل تفتح قبل الساعة السابعة».

لذا قرر جريجور المجازفة بالشروع في أرجحة جسده بطوله كله في نفس الوقت؛ لكي يخرج من فراشه، وفكر أنه لو سقط، وهذا ما سيحدث ولا شك؛ فإن رأسه على الأقل لن تتأذى؛ لأنه سيرتفع بها بكل قوته عندما يسقط، وسيكون الاصطدام كله واقعًا بأجمله على الظهر الذي فيما يبدو أنه صلب، ومن المحتمل ألَّا يُصاب بضرر حين سقوطه فوق البساط.

ولم يشغل جريجور سوى الصوت المدوي الذي سينتج عن هذه القفزة، والذي سيثير قلقًا لكل من هم خارج حجرته، هذا على أقل احتمال إن لم يتسبب بذعرهم، ولكنه لم يمتلك رفاهية الاختيار؛ فقرر المخاطرة.

استطاع أن يخرج بنصف جسده من السرير، وأصبح كل ما عليه فعله أن يندفع بجسده كله بواسطة ارتجاجات متوالية، ثم فكر في أن مسألة خروجه من الفراش ستكون أسهل لو أنه وجد دعمًا مناسبًا يساعده، على سبيل المثال شخصان قويان يقومان بهذا، ومَرَّ على خاطره فورًا أن والده والخادمة سيكونان غايته في ذلك، فكل المطلوب منهما هو أن تتسلل أذرعهما أسفل ظهره المحدب فيخرجاه من الفراش، ثم ينحنيان به إلى الأسفل بأناة؛ حتى تلمس قدماه الأرض، ومن ثَمَّ يتركانه حرًّا.

أما عن سيقانه الكثيرة والصغيرة فلا بد أن يكون لها نفع ما، وبالرغم من أن أبواب حجرته موصدة؛ فإن في الإمكان أن يوجه نداء يطلب فيه المساعدة، فهل تلك فكرة راجحة؟

هنا وبرغم ما كان يعتريه من ضيق؛ فقد داهمته ابتسامة لم يستطع كبتها.

أصبح لا يستطيع السيطرة على اتزانه عندما هَزَّ نفسه بقوة؛ فقرر أن يحسم الأمر؛ فالوقت يداهمه، وعليه أن يضع حدًّا بأخذ قرارٍ نهائي؛ فعقارب الساعة ستقف عند الساعة السابعة والربع تمامًا بعد خمس دقائق بالضبط، وفي هذه اللحظة التي كان يفكر فيها دَقَّ جرس الباب.

تجمد جسد جريجور، وتصلبت عروقه من القلق، وهو يقول لنفسه: «لا بد أنه مبعوث من العمل» بعدها بدأت قوائمه الصغيرة تتراقص بشكل هستيري، وللحظة رجع كل شيء إلى سكونه؛ فخمن جريجور تخمينًا يقوده أمل أحمق:
«لا بد أنهم لن يفتحوا الباب» لكنه بعد ذلك شعر بحركة الخادمة بخطواتها الثقيلة المعتادة متجهة ناحية الباب، ثم فتحته.

أرهف جريجور السمع، وما إن وصل لمسامعه صوت الزائر، ومن أول كلمة من كلمات التحية، عرف أنه وكيل الشركة بنفسه، هنا حَمَّل جريجور نفسه اللوم على عمله في مكان أقل تقصير فيه سيؤدي إلى اتهام مباشر بالتخاذل، وإثارة الشك بشكل مريب، فهل من المعقول أن كل من يعمل في الشركة ومن دون استثناء أوغاد؟ هل يعقل ألا يكون من ضمن كل العاملين شخص واحد نزيه ومخلص في عمله؟ شخص إذا ما تهاون في واجب العمل ولو لساعات فترة الصباح فإنه يفقد صوابه، ويعجز عن مغادرة منزله، محددة إقامته غير قادر على النهوض من فراشه. ثم ما هذا الاهتمام الزائد؟! إن فعلته لم تكن تستلزم إلا زيارة من أحد العمال تحت التدريب، هذا إن كان هنالك دافع مُلِحٌّ لإرسال أحد من الأساس.

فهل كان من الضروري حضور رئيس العمال بنفسه مظهرًا أمام العائلة البريئة أن تأخر ابنهم عن العمل قضية مريبة، ومشكلة مستعصية وجب التحقيق فيها؟ حتى إنه لا يمكن الحسم فيها إلا من قِبَل كبير الموظفين، الرجل الذي أعطته الخبرة فطنة وحكمة!

وأمام أفكاره المحملة بالغضب اتخذ قراره بقوة انفعالاته وليس بقوة العقل؛ فأرجح نفسه بقوة، وألقى بجسده عن السرير؛ فسقط على الأرض.

نجم عن ذلك السقوط ارتطامًا قويًّا، لكن لم يكن له صوت مُدَوٍّ؛ فالبساط امتص أثر السقطة، وكان فيما يبدو أن ظهر جريجور كان مرنًا، وليس صلبًا كما اعتقد، وعلى هذا فلقد كان الصوت الناتج مختنقًا، لا يثير أي اهتمام، ولكن رأسه هي من تأذت؛ إذ لم يرتفع بها إلى الحد المطلوب، بعدها أدار جريجور رأسه منزعجًا متألمًا يحكه في البساط.

من الغرفة المجاورة ناحية اليسار انتبه كبير الموظفين قائلًا: «شيء ما سقط هناك في الداخل» راح جريجور يتصور إذا ما أمكن أن يحدث لكبير الموظفين ما حدث له اليوم، ففي الواقع أنه من الممكن لأي إنسان أن يحدث له ذلك التحول، وهذا ما يجب الاعتراف به وإقراره.

وكأن كبير الموظفين أراد انتزاع إجابة على سؤاله بنفسه؛ فتصرف بفظاظة، إذ إنه قام وبخطى صارمة بحذائه اللامع ذي الرقبة الطويلة، فأخذ يحكه بالأرض فيُحدِثُ صوتًا مسموعًا.

في الجانب المقابل كانت أخت سامسا تعلمه من الغرفة المجاورة على اليمين هامسة له:

«إن كبير الموظفين هنا».

قال جريجور بصوت خافت كأنما يتحدث لنفسه: «أعرف ذلك»؛ حتى لا تسمع أخته صوته إذا ما ارتفع إلى الحد المسموع؛ فتدرك بذلك التحول الذي طرأ عليه.

ومن داخل الغرفة في الجانب الأيسر قال الأب:

«إن السيد كبير الموظفين قد زارنا، وهو يستفسر عن مانعك في الالتحاق بالقطار الأول، ونحن لا ندري بماذا نجيب عليه، إن السيد يرغب في التحدث إليك شخصيًا، فهل يمكن أن تفتح الباب، لا تقلق؛ فإن السيد فيه من الكياسة ما يجعله يغفل عن فوضى غرفتك».

أثناء حديث الوالد لابنه تدخل المدير وبصوت مرتفع تشوبه نبرة ودية قال:

«صباح الخير سيد سامسا».

علقت الأم: «إنه ليس في حالة جيدة».

وقد أَيَّدَ الأب دفاع الأم عن ابنه في عذره عن استقبال كبير الموظفين، وهو ما يزال ملتصقًا بباب الحجرة:

«صدقني سيدي الرئيس، إن حالة ابننا ليست بالجيدة على الإطلاق، وإلا فما الذي سيجعل ابننا جريجور يفوت القطار؟ إن جريجور لا يشغله شيء في الحياة إلا العمل، حتى إنه لا يخرج في المساء، وهذا هو سبب خلافي معه إلى درجة الغضب منه، فها هو يعمل في المدينة لثلاثة أيام، وفي النهاية يمكث في المنزل إما جالسًا على المائدة برفقتنا هادئًا، أو يتصفح جريدة، وربما يراجع قوائم مواعيد القطارات، ولا يسليه في الوجود سوى الزخرفة بالمنشار المخصص لها، فمثلًا صنع من فترة يسيرة برواز صغيرًا في غضون ليلتين أو ثلاث، وإنني متأكد من أن الإطار سيعجبك حين تفتح باب حجرته، وتراه معلقًا في حجرته أمامك، فترى كم هو جميل، وإنني لسعيد أشد السعادة لوجودك بيننا يا سيدي، فمن غيرك كان من الممكن أن يقنع ابننا بفتح باب حجرته، إنه عنيد جدًا، وبالتأكيد فهو يعاني خطبًا ما، ولو كان ينكر ذلك».

قال جريجور في بطء ودون أن يتحرك: «إنني قادم في الحال». كان هادئًا مرهف السمع؛ كي لا تفوته كلمة من الحديث خلف الباب.

عَقَّبَ رئيس الموظفين:

«وأنا كذلك يا سيدي، لا أجد تفسيرًا لما يحدث لابنك، أو ما بدر منه، ولا أظن أن هنالك احتمالات تفسر فعله، ومع ذلك فإنني آمل ألا يكون وضعه خطيرًا، ولكن الواقع يحتم علينا نحن التجار تجاهل كل وعكة صحية، خاصة إذا كانت خفيفة في سبيل العمل».

قرع الأب الباب مرة أخرى قائلًا وكان قد نفد صبره:

«حسنًا، والآن ألا يمكن للسيد رئيس الموظفين أن يدخل ويطمئن عليك؟»

فأجابه جريجور بشكل قاطع:

«نعم، لا يمكن».

وعلى هذا أطبق صمت مؤلم في الحجرة الواقعة على شمال حجرة جريجور، وفي الوقت نفسه كانت الأخت تبكي في الغرفة الأخرى.

ثم تواردت الأسئلة على خاطر جريجور، لماذا لم تنضم أخته إلى الآخرين في نفس الحجرة؟ لربما كانت قد غادرت فراشها منذ فترة وجيزة، ولم تبدل ملابسها إلى الآن، لكن لماذا كانت تبكي؟ قد يكون السبب هو أنه ما يزال في فراشه مسببًا الإحراج لوالديه أمام رئيسه الذي من الممكن بسبب هذا الموقف أن يلح في مطالبتهم بتسديد الديون المستحقة على وجه السرعة، ولكن كل أفكاره كانت محض ظنون؛ فجريجور لم يترك المنزل، وما يزال يعيش في كنف والديه، ولم يَرِد على فكره أن يتخلى عن أسرته، أي أن الوضع ما زال آمنًا، ثم إن أسرته لو كانت على علم بما حَلَّ به وأنه مستلقٍ بعجز فوق السجادة؛ لما كانت تطلب منه فتح الباب لرئيس الموظفين مهما حدث، إلا أن جريجور لم يجد تفسيرًا لسلوك عائلته غير اللائق الذي لم يراعِ خصوصيته، ومع هذا فقد تقبل هذا التصرف الفظ بمزيد من سعة الصدر، معللًا لنفسه بأنه ربما لهم عذر في تصرفهم هذا، وسيكتشفه لاحقًا، فلو أدركوا ما حَلَّ به؛ لرأوا أن من الحكمة وسداد الرأي تركه في سلام دون إزعاجه بالدموع والتوسلات - فَكَّرَ - إن لهم عذرهم؛ فعدم المعرفة بما تحول إليه يبرر موقفهم.

هتف عليه رئيس الموظفين، ولكن بصوت أعلى هذه المرة:

«سيد سامسا، ما الذي يحدث؟ إنك متحصن بغرفتك، ولا تجيب إلا بإجابات مختصرة: «نعم» أو «لا»؛ مما يسبب لوالديك القلق من ظنون مزعجة من غير داعٍ، غير مبالٍ، وأقصد هنا وبشكل عارض – واجبات العمل – حين تؤديها بهذه الطريقة المخزية لوالديك ورئيسك في العمل، وبكل جديه ووضوح أرجو منك تقديم تفسير عاجل ووافٍ، وإني لمندهش حق الاندهاش؛ فكم توسمت فيك من صفات الإنسان العاقل الرصين، ولكن على ما يبدو أن رأيي فيك لم يكن في محله، فها هي بوادر نزوات غريبة بدأت بالظهور لديك، وهذا ما لمح له مديرك العام في هذا الصباح، وفسره كإهمال منك، بل قال: إن السبب في إهمال سامسا ربما يرجع إلى الدفعات التي حصلها في الآونة الأخيرة كعُهدة إلى حين وصوله إلى العمل وردها، ومع ذلك فقد دافعت عنك باستماتة، وحلفت له بشرفي وبأغلظ الأيمان أن هذا التفسير ليس صحيحًا بالمرة، إن عنادك لا يصب في مصلحتك؛ مما يجعلني أتخلى عن الدفاع عنك أمام ما أراه من إهمالك الشنيع في شؤون العمل.

وقد جئت خاصةً لأخبرك بأن وضعك في الشركة لم يعد كسابق عهده، وهذا ما أردت إخبارك به على انفراد، وأن وظيفتك غير ثابتة، وأما وقد أضعت وقتي أمام لامبالاتك؛ فإنني أجد أنه ليس هنالك ما يمنع والديك من معرفة هذه الحقيقة بدورهما، إن أداءك في العمل قد اختل، وهذا ليس منذ فترة قصيرة، صحيح أننا لسنا في موسم ازدهار للعمل، وإنه أكثر مواسم السنة ركودًا، وهذا مما لا شك فيه، ولكن منذ متى وعملنا يتبع المواسم، إنه عمل يتطلب المثابرة والجد في أي ظرف يا سيد سامسا».

صاح جريجور وقد خرج عن طوره ناسيًا كل شيء: الكياسة، واللياقة، ووضعه الحالي:

«ولكن يا سيدي أنا في طريقي لفتح الباب على الفور، إن وعكة صحية هينة قد ألمت بي، نوبة من نوبات الدوار ليس أكثر؛ منعتني من النهوض من الفراش، فما زلت مستلقيًا فوق سريري، وأما الآن فأنا أشعر بأنني استعدت جزءًا من حيويتي ونشاطي، وسوف أترك فراشي خلال دقائق، كل ما أطلبه منكم هو الصبر؛ فأنا بخير، ولكن للحقيقة ليس بالدرجة الكافية من القوة.

إن هذا الدوار باغتني، وبالأمس كنت على غير هذه الحال، ووالداي يعرفان الحقيقة، هذا إن أردت التأكد من صدق كلامي، إن شعورًا بالقنوط أصابني البارحة ظهرت معه بوادر التعب، وكان عليّ إعلام الشركة بذلك، لكنني لم أفعل؛ لأنه وكما تعلم فالإنسان يظن أنه قادر على التغلب على المرض ما دام يمتلك اليسير من القوة، كما أنني أطلب منك مراعاة شعور والديّ، فإن كل ما تلومني من أجله ليس له أساس من الصحة، ولم ينذرني أحد من قبل بشأن جهودي في العمل، ومن الواضح أنك غير متابع لعملي، ولم تطلع على قائمة الطلبات الأخيرة التي سلمتها، ومع ذلك فإنني سألتحق بقطار الساعة الثامنة.

من الواضح أن ساعات الراحة التي أمضيتها جددت نشاطي، سيدي لن آخذ من وقتك أكثر من هذا، فبعد قليل سأذهب بنفسي إلى الشركة، فلو سمحت أبلغ المدير العام اعتذاري وأعذاري الخاصة».

وبينما كان جريجور يتحدث في عصبية واسترسال دون ترتيب لكلامه أو وعي، استطاع الوصول إلى صندوق ملابسه دون عناء، لعل تدريباته على التأقلم على هذا الوضع وهو ما يزال في فراشه قد ساعدته، اقترب من الخزانة محاولًا الاستناد عليها. وبداخل نفسه شعور يحرضه على فتح الباب؛ ليرى الموجودون خلفه حقيقته الجديدة، وأن يواجه كبير الموظفين مع رغبة قوية في معرفة ردود أفعالهم بعد إلحاحهم المستمر في المطالبة بظهوره، فماذا سيقولون حينئذٍ؟ فلو ارتعبوا منه؛ فحينها سيكون في أمان دون تحمل أدنى مسؤولية، أما إذا تقبلوه؛ فحينها سيكون آمنًا أيضًا، وبإمكانه مواصلة حياته بشكل عادي، واللحاق بقطار الساعة الثامنة.

عند محاولة جريجور الوصول للصندوق انزلق في بداية الأمر عدة مرات فوق سطحه الأمامي المصقول، وأخيرًا جمع شتات قوته، واندفع دفعة واحدة واقفًا منتصبًا، غير مبالٍ بآلام بطنه المتصاعدة عندما تمددت، ثم ترك نفسه يسقط هاويًا على ظهر الكرسي

المحاذي له، تتشبث قوائمه الصغيرة في حواف المقعد حيث تمالك نفسه مسيطرًا عليها من جديد، صامتًا مرهف السمع لما سيقوله كبير الموظفين.

سأل كبير الموظفين الوالدين:

«هل فهمتما كلمة واحدة مما قاله؟ هل يمارس معنا خدعة؟»

هنا قالت الأم منتحبة:

«لا سمح الله ربما هو يشكو مرضًا خطيرًا، ونحن بضغوطنا عليه نعذبه، ونزيد من ألمه».

ثم هتفت:

«جريتا، جريتا».

أجابتها الأخت من الغرفة المقابلة:

«نعم يا ماما».

فأمرتها:

«أسرعي بإحضار طبيب، أسرعي، هل سمعت صوت جريجور وهو يتحدث؟».

عَقَّبَ كبير الموظفين بهدوء:

«كان هذا الصوت لحيوان، ولم يكن صوتًا آدميًا».

وعبر الطرقة المؤدية إلى المطبخ صاح الأب وهو يصفق بيده:

«آنا، آنا، استدعي صانع الأقفال في الحال».

سريعًا كانت الفتاتان تجتازان الردهة يُسمع لتنورتيهما حفيفٌ، فكر جريجور، كيف استطاعت الأخت أن ترتدي ملابسها على وجه السرعة هكذا، ثم فُتِح الباب، ولم يُغلق؛ لأنه لم يسمع صوتًا لإغلاقه، ترك الباب مفتوحًا حاله حال أبواب المنازل التي حَلَّتْ بها فاجعة.

أما الآن فقد أصبح جريجور هادئًا عن السابق، يفكر في أن الكلمات التي تفوه بها لم تكن مفهومة بالمرة، بالرغم من أنه اجتهد في إخراجها؛ فبدت على حد ظنه واضحة بدرجة كبيرة، ربما أكثر من كلماته السابقة، وأيًّا كان فمن المؤكد أنهم شعروا بخطب ما أصابه، وهو الأمر الذي جعله مرتاحًا من أنهم قد أصبحوا مستعدين لتقبل وضعه الحالي ومساعدته، كما أن الإجراء الأولي الذي اتخذه الوالد كان له الأثر الطيب عليه، إن الثقة والطمأنينة أعادت هالة الإنسانية لتحيطه وتشمله من جديد، وراوده الأمل في اختيارين: إما الطبيب، أو الحداد في إبهاره بأعمالهم العظيمة حيال وضعه، ولم يكن متأكدًا تمامًا أيهما المعني بالحضور.

تنحنح مصفيًا حنجرته؛ ليبدو صوته واضحًا إلى أقصى حد ممكن؛ حتى يتمكن من المشاركة في الأحاديث الهامة التي ستتم بعد وقت قليل، سعل بصوت منخفض، ذلك أن صوت سعاله لم يكن أيضًا طبيعيًّا أو بشريًّا، وهو ما لم يستطع أن يتحقق منه بشكل قاطع.

أما في الغرفة المقابلة كان الصمت هو سيد الموقف، فكر جريجور واضعًا احتمالين: إما أنهم ملتفين الآن حول كبير الموظفين يتهامسون، أو أنهم جميعهم ملتصقين بباب غرفته يسترقون السمع.

ببطء سحب جريجور نفسه وهو ما يزال جالسًا فوق الكرسي نحو الباب، وفي حركة واحدة ترك الكرسي مندفعًا بجسده إلى الباب، متكئًا عليه بقوائمه الصغيرة اللزجة، ثم بدأ يدير المفتاح في القفل بفمه، لاحظ أنه لم يعد يمتلك أسنانًا بالفعل، وسأل نفسه، كيف سيمسك بالمفتاح إِذَنْ؟ إن فكيه قويان جدًّا، هذا ما جال بخاطره، وبواسطتهما حَرَّكَ المفتاح بالفعل، غير مهتم من آثار فعله، وما سيترتب عنه من ضَرر، حيث سال من فمه سائلًا أسود بَلَّلَ المفتاح، وراح يقطر فوق أرضية الحجرة.

انتبه كبير الموظفين، وقال من الحجرة المقابلة: «اسمعوا، استمعوا، إنه يدير المفتاح» مما حفز جريجور، لكنه لا يكفي، على والديه أيضًا

تشجيعه. وبالفعل هتفا: «هيا يا جريجور، تابع، استمر، تمسّك بالقفل جيدًا» وظن أنهم بالفعل يتابعون جهده الحثيث بانتباه بالغ؛ مما شجعه؛

فأطبق بفكيه على المفتاح بكل ما أوتي من قوة، مرتكزًا على المفتاح، يدور معه حول القفل في حركة حلزونية لا يستند إلا على فمه، يجذب المفتاح ويدور به دورة كاملة، وعند القمة ينسحب به إلى الأسفل معتمدًا على ثقل جسده، وعلى هذا مرة تلو أخرى، إلى أن سمع صوت قرقعة القفل، هنا أحس بشعور الذي أُحْيِيَ من مرقده من جديد؛ تنفس الصعداء قائلًا لنفسه: «وأما الآن

فلا حاجة لهم بالنجار» ثم ضغط برأسه على مقبض الباب لينفتح.

لم يظهر عندما فُتح الباب، وظل مختفيًا خلفه؛ نظرًا لأنه كان لا يزال معلقًا بالمفتاح، وليظهر أمامهم وجب عليه الدوران بحذر حول درفة الباب، وإلا سقط على ظهره فوق عتبة الحجرة بشكل أحمق، وبينما هو مشغول بهذه الحركة الدقيقة ومن دون أن يهتم بأي

شيء آخر، سمع صوت صرخة تخرج من فم كبير الموظفين: «أوه»!

خرجت كهبة ريح عندما تلاقيا وجهًا لوجه؛ ذلك لأن كبير الموظفين كان أكثرهم قربًا من الباب، فلطم بكفه فوق فمه الفاغر متقهقرًا للخلف، كأن قوة خفية تسحبه، أما الأم فكانت تقف أمام المدير، وشعرها ما يزال مهوشًا أشعثَ لم تسوِّه منذ استيقاظها، تطلَّعَت في البدء نحو الوالد، ثم تقدمَت خطوتين إلى الباب، وما إن رأت جريجور حتى سقطت على الأرض، وغابت عن الوعي، وكوَّر الأب قبضة يده كأنه يريد دفعه مرة أخرى داخل حجرته، ثم جال ببصره داخل الغرفة كأنه يبحث عن شيء مفقود، ثم وضع يده على وجهه وأجهش بالبكاء، حتى إن صدره أخذ يعلو وينخفض.

ظل جريجور في مكانه متكئًا على جناح الباب، ولم يظهر منه إلا جزئه العلوي، ورأسه المائل ينظر إليهم من خلف الباب، فظهر أمامه بيت قاتم اللون لا نهاية لطوله، وعلى الجانب الآخر رتل منتظم من النوافذ المصطفة، وكان المطر في الخارج ما يزال يتساقط، ولكن بقطرات كبيرة تحدث في سقوطها رذاذًا متباعدًا في إيقاع غير منتظم، وبداخل المنزل كانت أطباق الفطور الكثيرة مرصوصة فوق المائدة؛ فقد كانت وجبة الإفطار هي الوجبة الأهم بالنسبة للأب، بعدها يقضي ساعات يتصفح الجرائد المختلفة، تواجهه فوق الجدار الماثل أمامه صورة لجريجور تعود إلى فترة خدمته العسكرية حينما كان ملازمًا في زيه الرسمي، قابضًا بيده على مقبض السيف، وترتسم ابتسامة الواثق فوق وجهه، هيئة تدعوك لاحترام هيبته.

الباب المؤدي إلى الصالة كان مفتوحًا، وكذلك الباب الرئيس للمنزل كبيرًا بشكل يسع لجريجور أن يشاهد منه طرقة السلم، وبعض الدرجات الهابطة للأسفل.

كان جريجور يعلم أنه الوحيد الذي ما زال محتفظًا بهدوئه وثباته من بين الموجودين، قال: «حسنًا، سوف أبدل ثيابي في الحال، وأحزم أمتعة العمل، ثم أسافر في التوِّ، ما رأيكم؟ هل ما زلتم مصرممين، هل تودون؟ هل تودون مني أن أسافر؟ حسنًا يا سيدي كبير الموظفين، فها أنت تلاحظ أنني غير متعنت، وبأنني أرغب في العمل، بالرغم من أن السفر شاق ومرهق، ولكن ما حيلتي؟ فالحياة لا تكتمل دون العمل، والعمل لا يكون دون ترحال، بالرغم من أن العمل شاق ومرهق، سيدي أراك ترحل، إلى أين أنت ذاهب؟ هل أنت ذاهب إلى المكتب؟ إن كان كذلك فهل ستنقل لهم الصورة كاملة؟ ربما لا تعلم أن كل إنسان قد تمر عليه لحظات من الضعف، صحيح، لكنها مؤقتة، وهي الفترات التي يقضيها المرء في حساب ما أنجزه في السابق من عمل، وما أحصى من خبرات، ومن ثم تزول هذه المحنة، فتكون الذاكرة فيما بعد حينما يقارن بين وقت ضعفه ووقت قوته هي الدافع إلى العمل بأقصى جهد، وإنني لمدين بالكثير لسيدي المدير، وذلك ءو ما أنا متأكد منه، إنني مدين له بالنعم ورغد العيش الذي أنا فيه، وهذا ما تعرفه أنت أيضًا، ولكنني أيضا متكفل بإعالة والديَّ وأختي، وها أنا في مأزق، ولكن أعدك بأنني سأتخلص منه؛ فساعدني، ولا تُزِدِ الأمور سوءًا، إنني أطلب منك الدعم ليس بشكل شخصي، ولكن من جانب المؤسسة.

أنا أعلم أن وضع مندوبي المبيعات الجائلين غير محبب بالنسبة للموظفين، فهم يظنوننا مرفهين، دون عناء نربح المال الوفير بشتى الطرق الشرعية وغير الشرعية، ولكن الحقيقة هي الحَكَم، وهي مختلفة تمامًا، الحقيقة التي تعلمها جيدًا، وأقولها بيني وبينك، أنت تعرفها أكثر من المدير نفسه، إن موقع المدير قد يجعله ينحرف عن الحكم الصائب ضد أحد مستخدميه، كما أنك تعلم خطورة ترحالنا طوال العام؛ مما يجعلنا فريسة للقيل والقال، وجلسات الغيبة والنميمة، والشكاوى القائمة على غير أساس، ولأن البائع الجائل غير موجود أغلب الوقت بحكم عمله، فإنه غير قادر على الدفاع عن نفسه، وحين تصل إليه الوشاية يكون قد فات أوان الرد والدفاع عن النفس؛ لأنه يكون وقتها ضعيفًا لا حول له ولا قوة، لا يكون موجودًا إلا حينما يلتمس آثار النتائج السيئة ذات الأسباب المبهمة.

سيدي المدير لا أريد منك الرحيل، ألا وقد وعدتني بأنك راضٍ عني، وأنك متعاطف معي ولو بقدرٍ ضئيل على الأقل؟»

ولكن كبير الموظفين لم يتمهل، فما إن بدأ جريجور ينطق أول كلماته حتى استدار الرجل مشدوهًا، يختلس النظر وهو يرتجف، ثم تسلل ببطء نحو الباب أثناء حديث جريجور، دون الالتفات مرة أخرى، وما إن أنهى جريجور كلامه حتى كان كبير الموظفين قد وصل إلى الصالة بخطوة واحدة فجائية، مَدَّ ساقًا ثم ألحقها بالثانية المتبقية داخل الغرفة، وكأنه أحرق أخمص قدميه؛ فراح يثب، وفي الطرقة مَدَّ ذراعه الأيمن إلى أقصى مداه في اتجاه السلم كأنه خرج ناجيًا بنفسه وكأن بالخارج منقذه الخارق.

راهن جريجور على مستقبله المهني والحياتي برحيل كبير الموظفين، وقرر أنه لا يجوز أن يدعه يرحل بأي حال من الأحوال، وهو يضمر له كل الشكوك حول ما رآه منه، إنَّ تركه للعمل هو الأمر الذي لن يقتنع به والداه اللذان هيئا نفسيهما على أن عمل جريجور دائم ومستقر، وإلى نهاية الحياة، إنهما حتى لن يفهما معنى أن يفصل من الشركة، قد أبعدتهما الديون التي غرقا فيها عن المنطق والحقيقة.

أما جريجور فقد امتلك بعد النظر في كون عمله غير مستقر؛ لذا قرر الإمساك بكبير الموظفين قبل أن يذهب للشركة، ويخبر بوضعه، يجب أن يهدئه، ثم يقنعه بتروٍّ، ثم يكسبه لصفه، فمستقبل العائلة على المحك.

فكر جريجور لو أن أخته لا تزال بالمنزل، إنها ذكية ومتعاطفة، فقد كانت تبكي بينما كان جريجور مستلقيًا على ظهره ساكنًا في حجرته، ومما لا شك فيه أن كبير الموظفين هذا الشخص المحب للنساء سوف يخضع لها، كانت ستغلق الباب أمام وجهه حتى لا يهرب، وسوف تحدثه على انفراد في الردهة حديثًا يهدئ من روعه، ويزيل هواجسه، لكن للأسف فالأخت ليست هنا. وكان على جريجور أن ينقذ الموقف بنفسه، وبدون تفكير أو حساب مدى إمكانياته الحركية، ومن دون أن يضع في حسبانه أيضًا أن كلامه قد لا يُفهم بالمرة، فتح الباب على مصراعيه دافعًا نفسه يريد اللحاق بكبير الموظفين الذي كان يهبط السلم بشكل مضحك، ويتشبث بكلتا يديه بالدرابزين، أما جريجور فقد انزلقت أرجله العديدة يحاول أن يجد ما يستند عليه، وقد خرجت منه صرخة مكتومة، ولكن ما إن انطرح أرضًا حتى شعر ولأول مرة منذ الصباح بالراحة الجسدية، فالأرض ثابتة تحت قدميه، وأرجله تحت طوعه، تحمل ثقله كله دون جهد، وتسير به إلى الأمام، وهنا أدرك حقيقة عن نفسه، وأن الحل لكل معوقاته أصبح في متناوله.

وبينما هو يفكر وما يزال مستلقيًا فوق الأرض يهتز في حركة محدودة، قريبًا من والدته التي هبت واقفة، تفكر في حال ابنها،

بسطت يديها ومدت ذراعيها متضرعة «الرحمة يا إلهي، الرحمة منك» ونكست رأسها يائسة، تحاول أن ترى هيئة ابنها الجديدة بشكلٍ أفضل، وعوضًا عن التقدم نحوه تقهقرت للخلف دون هدف، وقد نسيت أن المائدة خلفها، وفوقها الطعام وفناجين القهوة، فارتطمت بها، وسقط إبريق القهوة محدثًا الكثير من الفوضى.

قال جريجور بصوت منخفض: «أماه، أماه» ونظر نحوها، ناسيًا كبير الموظفين الذي غاب عن ذهنه تمامًا، متأثرًا بمنظر القهوة المنسكبة؛ فأخذ يحرك فكيه في الهواء عدة مرات؛ فصرخت الأم مرة أخرى، وفرت فزعة من أمام الطاولة، وارتمت بين ذراعي الأب الذي هرع نحوها، تذكر هنا جريجور كبير الموظفين، فلم يأبه لحال والديه.

كان كبير الموظفين الفزِع قد اقترب من آخر درجات السلم، فالتفت التفاته أخرى للوراء وهو يصرخ: «أوه، أوه»، سمع جريجور صوته مما شجعه أن يلحق به، ولكن كبير الموظفين فيما يبدو أنه أيضًا قد شعر باقتراب جريجور منه؛ لذا فقد قفز فوق الدرجات المتبقية، وفي لحظة غاب عن البصر، وكان صدى صيحة الاشمئزاز والخوف لا يزال يتردد في الأرجاء، الصوت الذي اضطرب على إثره والد جريجور اضطرابًا اهتزت له نفسه كلها، ناسفًا هدوئه الذي كان محتفظًا به منذ لحظات.

وعوضًا عن أن يلحق بكبير الموظفين، أو على الأقل مساعدة ابنه في اللحاق به، راح يدق بقدمه فوق الأرض، وبيده اليمنى أمسك بعصا كبير الموظفين التي نسيها أثناء هروبه، وباليد اليسرى أمسك بالصحيفة المطوية، وأخذ يدق الأرض بقدمه، وهو يلوح بالعصا والصحيفة في وجه ابنه؛ ليدفعه إلى دخول غرفته، ولم تجدِ توسلات جريجور غير المفهومة بالنسبة للأب، بل جعلته يزيد من الدق فوق الأرض، فلم يجد جريجور سوى إحناء رأسه بخضوع.

الأم في الناحية الأخرى فتحت إحدى الشرفات، بالرغم من برودة الجو، وأخرجت رأسها من النافذة، وأخذت تفرك وجهها بتوتر، وكان الباب لا يزال مفتوحًا، فتدفق تيار هواء بارد إلى داخل المنزل، تحركت له الستائر، وتطاير ورق الصحف من فوق الطاولة إلى أرضية الصالة.

وبكل عنف وقسوة دفع الوالد ابنه إلى الخلف وهو يزمجر مثل وحش بري، ولأن جريجور لم يكن مدربًا على الزحف للوراء؛ فقد وجد صعوبة في التقهقر، أراد أن يستدير فقط حتى يدخل إلى حجرته في أمان، لكن والده لم يمهله، وقد خشي جريجور من إثارة حنق الوالد إن استدار ببطء نحو الغرفة، وكان الأب ما زال يهوِّش بعصاه مهددًا إياه بضربة قاضية فوق ظهره أو رأسه.

لاحظ جريجور أنه يفقد الاتجاه عند تراجعه للخلف، فكانت صدمة بالنسبة له، ولم يكن عنده من حل سوى الدوران بالفعل، وقد فعل ذلك بجهد شاق، وهو يلقي على والده نظرات جانبية بطرف عينيه خائفًا، وبدأ يسرع على قدر استطاعته ليثبت له نيته في دخول الحجرة، لعله يتركه ويتوقف عن رفع العصا أمام وجهه.

لكن والده ظل يوجهه بطرف العصا، ولم يتوقف عن الزمجرة في وجهه؛ فاضطرب جريجور وتوتر، ولعله لو تركه لشأنه لكان أكمل استدارته بوجه أسرع، لكن هذا الفحيح والزمجرة جعل جريجور يرتبك فيتردد ويعيد الدوران في الاتجاه الخاطئ، إلى أن أصبح رأسه أمام الباب؛ ففرح، ولكن ولسوء الحظ أن جسده واجه الصعوبة في الدخول من فتحة الباب.

لم يخطر للوالد البعيد عن ابنه نفسيًّا أن يشعر بمأزقه، ويفتح له الباب على مصراعيه فيوفر له متسعًا للمرور، كل ما كان يفكر به هو عودة جريجور لحجرته وبأسرع ما يمكن، فلم يكن مستعدًا لأن يصبر عليه ريثما يبدأ بحركاته المعقدة للوقوف على أرجله، لعله يجد حيلولة لمأزقه في الدخول عبر الباب، بل صمم على أن يسوقه إلى الأمام، وهو يزمجر بصوت لا يشبه صوت أبيه سابقًا، بل إنه ليس صوت أب من الأساس.

دفع جريجور نفسه دفعًا؛ فارتفع بجانبه المائل وانحشر في فرجة الباب، مما سبب له جرحًا كبيرًا في جنبه، وتلطخ الباب بدمه الأبيض، ثم انحشر أكثر فأصبح معلقًا، وأرجله ترتعش من فرط الألم، حاول أن يتكئ بأرجله على الأرض برغم صعوبة المحاولة وألمها، ولم ينقذه سوى إزاحة الأب له من الخلف في دفعة عنيفة؛ فطارَ إلى الداخل، وتدحرج إلى منتصف الحجرة تنزف منه الدماء؛ فأغلق أبوه الباب بجذبةٍ قوية، ثم خَيَّم الصمت.

***

نام جريجور نومًا عميقًا أشبه بالإغماء، واستيقظ مع حلول الغسق، وكان طبيعيًّا أن يستيقظ في هذا الوقت من دون إزعاج، فقد نال قسطًا وافيًا من الراحة والنوم، لكن أيقظته حركة أقدام خفيفة عقبها إغلاقٌ حَذِرٌ للباب المؤدي للصالة؛ تطلع حوله، كان نور مصابيح الشارع منعكسًا على سقف الغرفة وسطح أثاثها بضوء خافت، أما هو فكان يقبع في الأسفل حيث الظلام يعم مكانه، وبتمرس دفع نفسه يتلمس طريقه عبر قرون الاستشعار التي قدَّر أهميتها؛ حتى توصل إلى الباب ليستطلع ما يحدث في الخارج.

لم يكن مرتاحًا في سيره من أثر ندبة أصابته في أحداث الصباح، فكان يعرج على صف واحد من أرجله الصغيرة، إضافة إلى أن واحدة من قوائمه قد جرحت جرحًا غائرًا، فكان يجرها دون إحساس بها.

وصل إلى الباب متسحبًا نحو رائحة الطعام، وكانت هي التي جذبته في الحقيقة أكثر من رغبته في استطلاع ما يحدث بالخارج، كان إناء به حليب طفت فوقه لقيمات صغيرة من الخبز الأبيض، أسعده وجود الطعام حتى إنه ضحك فرحًا، فالجوع يقرصه أكثر مما كان عليه في الصباح، ودون تردد غمس رأسه كله إلا عينيه في الوعاء، ومصابًا بالقنوط رد رأسه مرة أخرى إلى الخلف، إنه ليتناول الطعام عليه استخدام جسده كله، ومن العسير أن يحدث ذلك وجانبه مجروح يؤلمه مع الحركة، كما أن طعم الحليب لم يكن مستساغًا بالنسبة له، برغم أنه كان سابقًا شرابه المفضل، وهو السبب الذي حرض أخته على وضعه له، ولكنه الآن أصبح متقززًا منه؛ فرجع مستديرًا إلى منتصف الحجرة.

رأى جريجور من شق الباب ثمة ضوء مصباح منبعث من حجرة الجلوس، إنه في العادة وقت قراءة والده لصحف الظهيرة بصوت عالٍ أمام أمه أو أخته، ولكن الغريب أنه لا صوت مسموع يصل إليه، إنه السكون يخيم على المنزل عامة، هذا المنزل المأهول بأهله. قال غريغور محدثًا نفسه: «منذ متى وحياتهم هادئة ساكنة؟»

ثم امتلأت نفسه بالزهو كونه المتكفل بأسرته، وأنه السبب في معيشتهم في هذه الضاحية وهذا المنزل الهادئ الجميل، ثم انتابه الفزع أن تؤول النهاية إلى هذا الضياع، فكيف سيكون الحال في المستقبل حين يقدر لهذا الجمال أن يذهب بلا رجعة؟ ولكي يقي نفسه مصارع الفكر راح يشتت تركيزه بالدب في أرجاء الغرفة ذهابًا وإيابًا.

المساء طويل وهو وحيد، مرة فُتِحَ واحد من الأبواب الجانبية، ومرة فُتِحَ الباب الآخر مواربًا قليلًا، ثم ما لبث أن أُغلق، لعله شخص أراد الدخول وعدل عن الأمر، قرر جريجور حسم الأمر بالوقوف أمام باب حجرة الجلوس مباشرة، مصممًا على استقبال الزائر المتردد خلف الباب بأي وسيلة، لكن طالت وقفته بلا طائل، ولم يدخل الزائر.

قارن جريجور بين الموقفين، ففي الصباح الباكر حين كانت الأبواب موصدة كان الجميع يتلهف خروجه، وأما الآن وبعد أن فتح بابًا بنفسه؛ فإن أحدًا لم يأتِ.

ظل جريجور متيقظًا مراقبًا، لم يُطفأ النور إلا في ساعة متأخرة من بعد منتصف الليل، وهذا يعني أن أفراد أسرته ظلوا متيقظين إلى هذا الوقت، ثم سمع مشيتهم على أطراف أصابعهم عائدين إلى غرفهم. حسنًا، الآن أصبح من المستحيل أن يزوره أحد، سيظل بمفرده حتى الصباح.

آثر التفكير في حاله، فأمامه متسع من الوقت حتى الصباح، إن حياته الجديدة تستلزم تفكيرًا وتنظيمًا جديدًا، حجرته أصبحت تثير فيه الرعب وهو منبطح فوق أرضيتها والسقف فوقه عالٍ وبعيد، إنه الشعور الذي لم يجد له تفسيرًا، برغم أنها غرفته الخاصة منذ خمس سنوات، استدار دون وعي ودون شعور بالخزي، وتسلل إلى أسفل الأريكة، المساحة ضيقة، والأريكة تضغط على ظهره، وبرغم أن المكان غير متسعٍ؛ فإنه شعر بالراحة ولم يحزن على شيء.

قضى الليل بين غفوات متقطعة، ما تكاد جفونه يشبكهم النوم حتى يوقظه الجوع، ويفزع منامه، ثم حينًا آخر تأخذه الآمال في أن حاله بالتفكير الهادئ سينصلح، وأن عليه مساعدة أسرته بالتحلي بالصبر والمواساة على ما يسببه لهم من إزعاج في الوقت الراهن.

كان الصباح لم يولد، والظلام لا يزال يخيم على كل شيء، فوجد فرصة لاختبار قدراته وقراراته الجديدة، حينها فتحت الأخت باب حجرته، وهي في كامل ملابسها، نظرت متلهفة إلى أركان الغرفة؛ فشعرت بالفزع عندما لم تجده، وقالت لنفسها: «إنه بالتأكيد

بداخل الغرفة، ولكن في مكان ما، فهو لا يستطيع أن يطير» وجدته أسفل الكنبة؛ مما أصابها بالدهشة والذهول، وسارعت للخروج وإغلاق الباب

مرة أخرى بعنف، لكن شعورها بالذنب والشفقة جعلها تسرع بفتح الباب من جديد، الوضع غريب عليها؛ دخلت بحذر على رؤوس أصابعها كأنها تزور مريض اشتد به المرض؛ فلا تريد إزعاجه، وربما غريب لا تعرفه.

إن كل ما كان يفكر فيه جريجور الآن هو الطعام، فقد دفع رأسه حتى وصلت لحرف الكنبة يراقب الأخت إن كانت ستلاحظ أنه قد ترك الحليب على حاله أم لا، في الواقع إنه أراد أن يختبر شيئًا ما بداخلها تجاهه، ولم يكن شعورًا بالجوع، إنها وإن لم تَحِئْ له من تلقاء نفسها بما يريد من طعام تحبه ذائقته الجديدة؛ فإنه سيؤثر الموت على أن يطلب بنفسه.

من جانب آخر شعر بدافع بداخله يحفزه على أن يهتف عليها، وهو أسفل الكنبة، ملقيًا نفسه تحت قدميها متوسلًا أن تأتيه بشيء طيب يأكله.

من جانبها لاحظت الأخت أن وعاء الحليب ما زال ممتلئًا، وحوله لقيمات متناثرة على الحواف، فرفعت إناء الحليب على الفور لكن ليس بيديها، إنما أمسكته بخرقة.

تواردت الأفكار في عقل جريجور بخصوص ما الذي من الممكن أن تأتيه به، ولكنه كان واثقًا بها؛ فهي طيبة القلب، وستأتي له بشيء جيد.

من كرم الأخت أنها جاءته بوليمة يختار منها ما يشاء، وضعت الطعام فوق ورقة من صحيفة قديمة بالية، حوت المائدة خضرة ذابلة ضرب فيها العفن، وعظام من بواقي طعام ليلة الأمس تجمدت فوقه طبقة من المرق الأبيض، وبعض من الزبيب واللوز، مع قطعة من الجبن كان جريجور نفسه منذ يومين أعلن أنها ما عادت تصلح للاستخدام الآدمي، وقطعتين من الخبز: واحدة يابسة، وأخرى

مملحة ومدهونة بالزبد، إضافة إلى وعاء على ما يبدو أنه قد خُصِّصَ لجريجور وضعت فيه الماء، ولأنها كانت طيبة المشاعر فقد أدركت أن جريجور لن يأكل في وجودها، فتركته في الغرفة وحيدًا، مديرة المفتاح خلفها حتى يأخذ راحته، ويتصرف كما يشاء.

تحركت أقدام جريجور ناحية الطعام، وبدا له أن جروحه التأمت تمامًا، ولم يعد يشعر بالألم أو بأن هنالك ما يعيقه؛ فاندهش؛ ذلك أنه منذ شهر قد جرح أصبعه جرحًا طفيفًا، وظل الجرح يؤلمه حتى أول أمس، وسأل نفسه: «هل من الممكن أن يكون قد اكتسب تبلدًا وقدرًا أقل من الإحساس عن ذي قبل؟» في نهم راح يلعق قطعة الجبن، حيث أنها أكثر ما اجتذبه دون بقية الطعام، ثم سرعان ما أخذ يلتهم بعد الجبن الخضار والمرق دون تمييز، حتى تأججت دموع الفرح في عينيه.

أما الأطعمة الطازجة فلم ترُق له، بل لم يستطع حتى تحمل رائحتها، سحب الطعام الذي أعجبه، وأتى عليه حتى آخره، وبعدما أنهى طعامه استلقى في نفس المكان بكسل، أدارت الأخت المفتاح بداخل القفل أولًا كأنها إشارة له بأن ينسحب، وهو ما أيقظه إذ كان قد راح في سبات عميق، فشعر بالخوف وفر هاربًا أسفل الكنبة مرة أخرى، لكنه شعر بأن المكان أصبح أكثر ضيقًا، فقد امتلأ بفعل الوجبة العامرة، وأخذ يتنفس ببطء.

كان يراقب بعينين جاحظتين ما كانت تفعله الأخت من كنس بقايا ما بعثره، وما لم يأكله أيضًا، كله بعضه على البعض، ثم ألقتها جميعًا بداخل دلو ذي غطاء خشبي، وسريعًا أخذته وذهبت، وما إن خرجت حتى خرج جريجور من تحت الكنبة متمددًا منتفخًا.

وعلى هذا الحال أصبح جريجور يتحصل على طعامه مرتين يوميًّا، مرة في الصباح الباكر وقتما يكون والداه نائمين، وأخرى بعد تناول الأسرة للغداء، بينما يكون الوالدان قد خلدا في قيلولة، إنهم لا يمتلكان رغبة في تجويع جريجور قطعًا، ولكن ربما اختارت الأخت هذا التوقيت لإطعام جريجور حتى تمنع عنهما ألمًا زائدًا بمعرفة نوع طعامه؛ فهما يعانيان بما فيه الكفاية حقًّا.

لم يستطع جرجور التكهن فيما يخص استبعاد الطبيب والحداد من البيت في ذلك الصباح، ولأنهم لم يفهموا كلامه فقد ظنوا أنه هو أيضًا لا يفهمهم، حتى أخته التي من المفترض أنها الأقرب إليه، وبما أنه لا طريقة عنده للتواصل، فقد كان يكتفي بسماع تنهدات أخته وابتهالاتها من أجله، وهي تدعو القديسين من وقت لآخر.

فيما بعد بعدما ألفت الوضع إلى حد ما، وإن لم يكن إلى حد الألفة الطبيعية السابقة، بدأ يصل لجريجور منها عبارات محبة، على الأقل لقد فسرها على هذا النحو، عبارات مثل: «اليوم أعجبه الطعام» أو «إنه لم يأكل شيئًا من الطعام؛ لقد ترك كل شيء على ما هو عليه».

كان جريجور يتتبع الأخبار بالتنصت من خلف الأبواب مسترقًا السمع، كلما وصله صوت التصق بالباب، في الأيام الأولى كان الصمت هو سيد الموقف بين أفراد الأسرة بخصوصه، ثم بدأ يسمع شيئًا يشبه المشاورات تدور حول موضوع واحد، كيف يتصرفون؟ نفس الجدل يتكرر طوال اليوم بين الوجبات، إذ إن المنزل لم يكن يخلو تمامًا من أصحابه على الأقل، دائمًا ما كان يوجد اثنان على أقل تقدير، رغبة من أفراد أسرته في عدم البقاء بمفردهم مع جريجور في نفس المنزل.

والخادمة أحست بوجود أمر مريب في البداية، وعندما عرفت الحقيقة التي أصبح عليها جريجور توسلت باكية للأم أن تسرحها، ولما فعلت الأم لم تتمالك نفسها من الفرحة والنعمة التي حصلت عليها، وأقسمت بدون طلب من أحد بأيمان مغلظة بأنها لن تبوح بالسر لأحد على الإطلاق.

بعد تسريح الخادمة وجب على الأخت أن تطبخ وتساعدها الأم في ذلك، أداء مهمة الطبخ لم تكن عقبة في حد ذاتها، إذ إن الأسرة بأكملها كانت فاقدة الشهية لا يأكلون شيئًا تقريبًا، يحث أحدهم الآخر على تناول الطعام دون جدوى إلا من كلمات قليلة: «شكرًا، لقد شبعت».

ومنذ الحادث لم يشربوا الكحوليات أيضًا؛ فقد كان جريجور يسمع الأخت تسأل الوالد إن كان يرغب في تناول البيرة، وتعرض بكل لطف أن تجلبها بنفسها إليه، ولما كان الوالد يصمت، كانت تحثه قائلة إنها من الممكن أن ترسل ابنة البواب أيضًا، فيرد والدها بـ «لا» حاسمة، فينتهي الحديث عند هذا الحد.

في اليوم الأول عرض الوالد ظروفه المالية أمام الأم والابنة مع جميع إمكانياته والاحتمالات الواردة مع هذا الظرف الجديد، من فينة لأخرى يترك الطاولة، ويذهب لإحضار مستند أو عقد من خزانته الحديدية الصغيرة التي استطاع إنقاذها من متجره الذي انهد منذ خمس سنوات مضت، يسمعه جريجور وهو يفتح القفل، يخرج ما يريد ثم يغلقه مرة أخرى، كانت هذه الإيضاحات هي ما أراح جريجور تجاه مستقبل أسرته ولو قليلًا، وكانت الخبر السعيد الذي وصل لسمعه منذ فترة حبسه بالغرفة.

كان جريجور يظن أن أعمال والده التجارية انتهت تمامًا؛ فالوالد لم يخبره بما يناقض تلك الحقيقة، ومن جانب آخر فجريجور لم يسأله، فقد كان كل هم جريجور في هذا الوقت هو مساعدة الأسرة بأية وسيلة، وبذل كل ما في وسعه لتبديد يأس الأسرة وحزنها.

ومن أجل ذلك الهدف عمل بجهد مضاعف؛ ليترقى من موظف صغير لمندوب تجاري، النجاح الذي تُرجم إلى أموال، بل وأموال كثيرة، كان يصبها جميعًا فوق الطاولة أمام والديه في فخر وسعادة، إنها الأيام المزدهرة في حياة الأسرة، الأيام التي ربما لن تتكرر، حين تمكن جريجور من إعالة أسرته إعالة تامة، وقد اعتادت الأسرة ذلك، وأيضًا اعتاده جريجور، فهو يعطي المال برضا، وهم يقبلونه بامتنان لا يصاحبه دفء حقيقي، أما الشعور بالحب والحنان فهو الأمر الذي لم يحدث أبدًا.

لم يبقَ أحد إلى جوار جريجور سوى أخته، الأخت التي خطط لمستقبلها في سرية وكتمان، فهي على عكسه تحب الموسيقى حد الشغف، إضافة إلى إجادتها العزف على الكمان بطريقة مؤثرة، أراد جريجور أن يُلحقها بالمعهد العالي للموسيقى بغض النظر عن نفقاته العالية، ولكنه أرجأ الأمر عازمًا على فعل ذلك عندما يتوفر معه المبلغ اللازم، وكم حدثته أخته في الفترات التي كان يقضيها في المدينة عن المعهد كحلم جميل لا أمل من تحقيقه، أما الوالدان فلم يكن يروقهما سماع مثل هذا الحديث، فصمم جريجور في نفسه على تحقيق حلم الأخت، وأرجأ مصارحتها بخطته إلى حين إعلانها في مناسبة أو عيد رأس السنة مثلًا.

لم تعد هذه الآمال الآن إلا ضربًا من ضروب الآمال الماضية التي أبدًا لن يجدي التفكير فيها في حالته الحاضرة، تواردت أفكاره عن

حياته في الماضي فيما كانت رأسه ملتصقة بالباب، منصتًا لما يدور من ورائه.

أحيانًا كان الإعياء العام يحول بينه وبين الوقوف لمدة طويلة جوار الباب مركزًا فيما يُقال؛ فتتهاوى رأسه مرتطمة بالباب، سرعان ما ينصبها، إن أي صوت يحدثه جريجور - ولو كان طفيفًا - يثير الذعر في الأسرة؛ فيصمتون مترقبين، أو يتساءل الوالد: «ترى ما الذي يقوم بفعله؟» متجهًا نحو الباب، ثم ما تلبث أن تستمر المحادثات مرة أخرى.

تأكد جريجور أن الوالد كان يعيد شرح وضعه المالي وطرحه أمام الأسرة مرة تلو أخرى؛ ربما لأنه لم ينظر في وضعه المالي منذ سنوات، أو أن الأم لم تفهم من المرة الأولى أن الوالد قد استقطع مقدارًا من استثماراته، وحافظ عليها من التلف، إضافة إلى الفوائد التي لم يقترب منها؛ فزادت المبلغ، إضافة إلى أن جريجور لم يكن يبقي لنفسه من المال الذي يتحصل عليه سوى بضع جولدنات، هذه الجولدنات القليلة استطاع تجميعها لتكون رأس مال يسير، رفع جريجور رأسه في شموخ مبتهجًا ومتحمسًا، كم أنه كان على بصيرة وحسن تدبير لوقت لم يكن يتوقع أن يحل فيه ما حَلَّ به، وكان من الممكن بهذا المال تسديد ديون الوالد، لكنه كان يفكر في هذا اليوم الذي يمكنه فيه التحرر من وظيفته الحالية، ولكن بما أن الوالد قد دبر أموره؛ فالوضع بالتالي جيد.

ولكن ومع ذلك فالمال لم يكن بالقدر الذي يغطي احتياجات الأسرة، ربما يغطي احتياجاتهم لعام أو اثنين، إن المال المقدر للادخار من المفترض ألَّا يُمَسَّ، لكن كان ذلك هو الوضع.

الوالد وبرغم أنه ما يزال بصحة جيدة فإنه أمسى بدينًا وكسولًا، والوالدة التي تقدم عمرها هل من المفترض أن تعول الأسرة؟ وهي التي تعاني من أزمات ربو، حتى إن أي حركة بالمنزل تصيبها بالإرهاق؛ فتمضي إلى النافذة تفتحها وتجلس قبالتها وهي تشعر بضيق في التنفس، أم أنه ينبغي على الأخت أن تكتسب المال؟ إنها في السابعة عشرة، ما تزال طفلة، كل ما يهمها في الحياة هو ارتداء الملابس الأنيقة، والنوم طويلًا، والمساعدة في شؤون المنزل مع الحصول على بعض الترفيه والتسلية، وأهم شؤونها هو العزف على الكمان، فعندما كانت الأسرة تطرح ضرورة اكتساب المال فقد كان جريجور يبتعد عن الباب طارحًا نفسه على الكنبة الجلد الباردة يشعر بالخجل والأسى كثيرًا.

هنالك عند الكنبة حيث يقضي ليله الطويل وحيدًا قلقًا يخدش جلده لساعات وساعات، أو يرهق نفسه جاهدًا في دفع الكرسي المنجد نحو النافذة، يصعد عليه حتى يصل إلى حرف النافذة، فيتكئ وقد نصب ظهره إلى الكرسي، يتذكر الماضي القريب حين كان حرًّا.

ويومًا بعد يوم أصبح يرى بوضوح أقل، لم يعد يرى البنايات القريبة، والمشفى المواجه للنافذة لم يعد يراه بالمرة، ولولا أنه متأكد من أنه يقطن في شارع شارلتون، الشارع الهادئ نسبيًّا مقارنة بشوارع المدن؛ لقال إن منزله يطل على أرض قفر تساوت فيها السماء الرمادية مع الأرض الرمادية على حد سواء مختلطة كصفحة واحدة دون تمييز.

كانت الأخت تنتبه لكل ما يخص جريجور؛ لذا فقد لاحظت تحرك الكرسي ووجوده عند النافذة، فكانت كلما نظفت الغرفة أزاحته بالقرب من النافذة، وزادت من لطفها أن كانت تترك دِرَف الشباك الداخلية مفتوحة.

لو كان بوسع جريجور أن يقدم شكره للأخت خاصة لجهودها وخدماتها معه ما كان ليتردد، إن عجزه تجاه شكرها يؤلمه، ووضعه ككل يحرجه، أما هي فكانت تحاول جاهدة التخفيف من حساسية الموقف، يوم بعد يوم كانت تنجح في تبسيط الواقع، ومعه اكتشف جريجور الحقيقة، فهو ما يزال فزعًا من دخولها واتجاهها صوب النافذة على الفور، تفتح النافذة بسرعة، ويداها ترتجفان لتأخذ نفسًا عميقًا، هذا النشاط الزائد يوقع في نفس جريجور الخوف، فيرتجف أسفل الكنبة ما دامت هي موجودة، وَدَّ لو تظل إلى جواره، ولكن دون فتحها للنافذة.

بعد شهر من انمساخ جريجور كان من الطبيعي أن تعتاد الأخت على مظهر أخيها، ولكن ما حدث خالف التوقعات، فقد أتت قبل موعدها بقليل لتجد جريجور وهو جالس فوق المقعد ينظر من النافذة ثابتًا لا يتحرك، وكان منظره يثير الرعب في أي إنسان؛ فقفزت الأخت للخلف، وأغلقت الباب ولم تدخل الحجرة، كان تصرفها يوحي بأن جريجور كان يتربص بها لمهاجمتها، ولم يكن من جريجور إلا الهروب سريعًا أسفل الكنبة، مفضلًا البقاء تحتها طوال الوقت حتى يحين موعد زيارتها التالية بعد الظهر، بدأت تظهر على أخته أمارات التوتر والقلق، السبب الذي معه تأكد جريجور أن منظره لا يُطاق، وبما أنه ليس في الإمكان أن يغير واقعه؛ فعلى الأقل يستطيع ألا يدعها تراه بهذا الشكل، ولو كان الجزء اليسير الذي يظهر منه من أسفل الكنبة؛ حتى لا تفزع وتهرب.

ولكي تشعر بالأمان فقد أزاح ملاءة السرير، وأراحها فوق ظهره، ثم سار بها إلى أن وصل إلى الكنبة، وقد استغرق من الجهد وقتًا يقارب أربع ساعات ووضعها بالشكل الذي يخفي جسده كليًّا، فلا تتمكن الأخت من رؤيته ولو انحنت، أما الأخت فلم تفهم هدف جريجور؛ فكانت تنتزع الملاءة مرة أخرى، وإن كان جريجور أيضًا ليس مرتاحًا لهذا الوضع، ومع الوقت أصبحت تترك الملاءة على وضعها بما أنه أراد ذلك، وقد توقع أن يرى نظرة امتنان لحسن صنيعه كما تخيل حينما رفع طرف الملاءة برأسه قليلًا.

أول أسبوعين لم يتجرأ الوالدان على الدخول إلى حجرة جريجور، وكثيرًا ما كان جريجور يسمع كلمات الشكر منهما للأخت التي تتولى رعايته، على عكس موقفهما السابق في الماضي؛ فقد كانا يعتبران ألَّا فائدة منها، وإن كان الوالدان ما يزالا مهتمين بأمره بخصوص شكل غرفته وطعامه وتصرفه، فكانا ينتظرانها أمام الغرفة؛ حتى تخرج وتحكي لهما بالإسهاب ما يحدث، وقد أعلنت الأم ذات مرة رغبتها في الدخول ورؤية جريجور، ولكن الوالد والأخت أقنعاها بالعدول عن الفكرة بأسباب منطقية، وكان جريجور يستمع لحواراتهم كلها منتبهًا.

أَلَحَّت الأم في الدخول؛ مما جعلهما يحاولان إيقافها ولو بالقوة، وما كان منها إلا أن صرخت في وجهيهما: «اتركاني أزور جريجور ولدي البائس، ألا تفهمان أنني أم، وعليّ الدخول إليه؟» وكان من رأي جريجور أنه من المستحسن لو تركاها تأتي لزيارته، ليس كل يوم بالطبع، ولكن على الأقل مرة كل أسبوع، إن الأم - وبرغم حالته الصعبة - هي الأقدر على فهمه دون الأخت التي ما تزال طفلة برغم قوة شكيمتها وشجاعتها، ولعل طيشها الطفولي في استعراض مهاراتها هو ما دفعها لتحمل تلك المسؤولية.

تحققت أمنية جريجور في مقابلة أمه، جريجور الذي لم يعد يرغب في الجلوس عند النافذة؛ خشية إزعاج والديه إن لمحاه، كذلك أمتار الغرفة الأربعة لم تكن تسعه، والنوم أصبح صعبًا أن يحصل عليه بهدوء وهو مستلق فوق أرضية الحجرة، حتى الطعام لم يعد يستسيغه، شعور بالملل حاق به ولم يخرجه منه سوى الزحف فوق الجدران والتعلق بالسقف، خاصة التدلي من السقف، كان

يريحه ويمتعه، فهنالك يكون حرًّا، يستطيع التنفس بيسر، ويهز جسده بخفة، الزحف كان تسليته في تزجية الوقت، غارقًا في نشوة وسعادة.

وبينما هو معلق في بالسقف فكر ماذا لو وقع وأحدث سقوطه صوت عالٍ؟ لكن سيطرته على جسده أكبر بكثير، ولو فرض أنه سقط فلن يؤذي نفسه.

لاحظت الأخت مهارته الجديدة؛ لذا قررت أن تفسح له مساحة أكبر ليزحف على راحته، قررت أن تفرغ الحجرة من أثاثها، خاصة من الخزانة ذات الأدراج والمكتب، ولأن قيامها بهذا العمل صعبٌ عليها بمفردها، ولأن الوالد من الصعب الحديث معه بشأن جريجور، وأما الخادمة فهي فتاة ذات ستة عشر عامًا، صحيح أنها كانت رابطة الجأش عن سابقتها، إلا أنها طالبت بامتياز خاص، ألا وهو أن يُسمح لها بإغلاق باب المطبخ عليها باستمرار، لا تفتحه إلا إذا طلبها أحد؛ لذا فلم يكن أمام الأخت سوى طلب مساعدة الأم وقتما يكون الأب غائبًا عن المنزل، ابتهجت الأم وتعالت منها أصوات الفرحة التي صمتت أمام منظر جريجور.

بعدما تحققت الأخت بأن الأمور على ما يُرام داخل الحجرة، أسرع جريجور بإزاحة الملاءة فوق الكنبة، وطيّها بشكل يوحي بأنها وضعت بمحض الصدفة دون ترتيب، وزيادة في إعطاء الأمان للزائرتين أحجم جريجور عن مراقبتهما مانعًا نفسه من رؤية الأم، فرحًا فقط بوجودها، وإن لم يكن يراها أو تراه.

طلبت الأخت من الأم الدخول قائلة: «تعالي، ادخلي، إنه مختبئ الآن» وهي تسحبها من يدها.

قامت المرأتان الضعيفتان بزحزحة الخزانة الضخمة، تضع الأخت على عاتقها الجزء الأكبر من العمل غير آبهةٍ بتحذيرات الأم لها أن تنتبه لنفسها، استغرقت محاولاتهما وقتًا قرابة الربع ساعة.

قالت الأم إن الخزانة ثقيلة جدًّا، ومن الصعب أن يقدرا على تحريكها قبل قدوم الوالد، كما أن وجودها منتصف الغرفة سيعيق حركة جريجور، وليس في صالحه إفراغ الحجرة من أثاثها الذي اعتاد عليه؛ فالوحشة ستزيده بؤسًا، فمنظر الجدران العارية يقبض الصدر، ثم اختتمت حديثها قائلةً: «إن ابعاد الأثاث سيوحي له بأننا فقدنا كل أمل في شفائه كأننا تركناه دون اكتراث، من رأيي أن تظل الحجرة على حالها كما كانت في الماضي إلى أن يعود جريجور إلينا، فيجد الحال على ما هو عليه؛ فيتخطى ما مَرّ به».

قالت ذلك بصوت هامس كي لا يسمعها جريجور الذي كانت تجهل مكانه على وجه التحديد، برغم أنها كانت متيقنة تمامًا من كونه لم يعد يفهم الكلام البشري.

سماع كلمات الأم زرعت في نفس جريجور يأسًا من أنه سيقدر على التواصل البشري المباشر بالحديث والجدال، إضافة إلى الحياة الرتيبة التي كانت أسرته تعيش فيها خلال الشهرين الماضيين، فإن اضطراب خواطره وحزنه الصامت جعله يتمنى لو أفرغت الحجرة من أثاثها سريعًا، أراد تحويل الغرفة الأثيرة بالفرش والعامرة بالأثاث إلى عرين يزحف فيه كما يشاء طولًا وعرضًا، حيث أصبح الزحف هو متعته الوحيدة في الحياة.

على عكس رأي الأم كان رأي الابنة التي كانت تؤدي دور الخبيرة بأمور جريجور كأنها الوصية عليه؛ فصممت على رأيها، تريد إخلاء الغرفة وحسب، أصبحت في الآونة الأخيرة معاندة عنادًا طفوليًّا، كما أن لها سببها المقنع في أن جريجور يحب بالفعل الزحف، ومن جانب آخر فهو لا يستخدم الأثاث مطلقًا، إنها مراهقة، وتريد إثبات ذاتها متحمسة بروح الشباب التي تظهرها كلما أتتها الفرصة وفي كل مناسبة، فوضع جريجور الخطير لا يجدي معه سوى حكمة الأخت، فهي الوحيدة القادرة على التعامل معه.

لم تجد الأم بدًّا سوى الانصياع لرأي ابنتها، فالغرفة موحشة بوجود جريور سواء احتفظت بأثاثها أم لا، فراحت تساعد الابنة صامتة، وهي تدفع الخزانة إلى الخارج، لم تكن الخزانة مهمة، وحتى في حياة جريجور الماضية.

بعد أن خرجتا بالخزانة يتأوهان من التعب، ارتفع جريجور برأسه من أسفل الكنبة يراقب الموقف، ومن سوء الحظ أن الأم هي من دخلت أولًا بينما كانت أخته في الغرفة المجاورة تضم الخزانة بذراعيها تحركها بمفردها، فلما رأى جريجور والدته خفض رأسه كي لا يسبب لها الذعر، منظره قادر على صرعها، وما إن وجدت الأم نفسها وحيدة في الغرفة حتى تمهلت لبرهة، ثم رجعت إلى ابنتها.

الضجة التي أحدثها نقل الأثاث، ورواح وجيئة الأم والأخت ونداءاتهما على بعضهما البعض سببت في نفس جريجور إزعاجًا كبيرًا، الضوضاء كانت تؤثر فيه بشكل لا يُطاق، فظل يهدئ نفسه بأنه فعل عادي وسوف ينتهي، ولن يتطلب الانتهاء من نقل الأثاث سوى وقت يسير، وكلما ازداد الضجيج تكور على نفسه طاويًا أرجله ورأسه، ضاغطًا على بطنه لأسفل، يفكر في أنه لن يستطيع التحمل أكثر من هذا.

كانتا تخليان حجرته من كل ما هو عزيز عليه وغالٍ، تنزعانه نزعًا، فالخزانة كانت تخبئ منشاره الخشبي وأدواته، والآن يفكان المكتب واضعين منضدة الكتابة فوق الأرض تغوص في البراح، المنضدة التي شهدت إعداد متطلبات عمله فوقها وواجباته الدراسية يوم كان طالبًا في الأكاديمية التجارية للحسابات، وقبلها أيام كان تلميذًا في الثانوية، وقبلها بكثير يوم كان تلميذًا ابتدائيًّا، مسار حياته حين كان إنسانًا، إنه غير قادر الآن على اختبار نياتهما الحسنة، ومن ناحيتهما نسيا وجوده أثناء انشغالهما، صامتتين إلا من صوت جر حذائيهما متثاقلتي الأقدام.

عليه أن ينقذ شيئًا من أطلال إنسانيته، هكذا فكر، فبينما كانت المرأتان تسندان طاولة الكتابة، يتنفسان بعمق بعد طول مشقة في الغرفة المجاورة، هنا انطلق جريجور من مخدعه يتناوب على الجدران يدور ويلف الحجرة زاحفًا، يبحث عمَّا هو الأهم لإنقاذه، لفت نظره على الجدار المقابل له صورة السيدة التي ترتدي معطفًا من الفراء، سريعًا زحف نحوها، ملتصقًا بزجاج إطارها الذي صنعه في وقت سابق، يغطي الصورة حتى لا يأخذانها منه، ثم حرك رأسه متحفزًا يراقب وصول والدته وأخته من حجرة الجلوس المقابلة.

أقبلتا سريعًا على عكس توقعه، تستند الأم على ذراع ابنتها من التعب، قالت الأخت متلفتة: «والآن ماذا تبقى لنأخذه؟» هنا التقت عيناها بعيني جريجور؛ فأحنت رأسها لتحول بين نظر أمها وجريجور، وما كانت لتبدو ثابتة هكذا لولا وجود الأم، ومن دون ترتيب لما

قد تقوله وفي كلمات متواترة سريعة قالت: «هيا يا أمي، أليس من الأفضل لنا لو رجعنا إلى حجرة الجلوس؟»

فهم الأخ قصد أخته، إنها تريد لأمها عدم الاصطدام به، ستأخذها بعيدًا، ثم تتعامل هي معه وتطرده بعيدًا عن الجدار؛ ليتسنى لها أخذ الصورة. حسنًا، لتفعل ولتتجرأ، وسوف يكون جزاؤها أنه سيقفز على وجهها؛ فهو لن يتخلى عن الصورة.

شكت الأم في نصيحة الابنة، وأثار فيها الكلام ريبة، فابتعدت بخطوة عن الابنة لتصطدم عينها بكائن أسود ملتصق بورق الحائط المزركش بالورود، غاب عن وعيها أن هذه الكتلة ما هي إلا ابنها جريجور، وصاحت «أوه، يا إلهي! أوه» لتسقط فوق الكنبة فاردة

ذراعيها، يائسة من كل شيء، دون أن يتحرك لها طرف، أما الأخت فقد هتفت عليه، وقد شخصت فيه «جريجور».

كانت هذه أول مرة تتوجه إليه بكلمة منذ حادثة تحوله، ثم أسرعت تركض إلى أحد الغرف لتحضر قنينة العطر حتى تفيق الأم.

حائر بين إنقاذ والدته وإنقاذ الصورة، أمه ملقاة دون حراك، أما الصورة فما تزال معلقة، وهنالك وقت لإنقاذها، ملتصقًا لا يكاد ينتزع نفسه انتزاعًا من زجاجها، لقد كانت أمه هي الأهم، ركض خلف الأخت إلى الحجرة الأخرى، لو أنه يستطيع مساعدتها، لو يستطيع إعطاء رأي، مثلما كان يفعل في الأيام التي مضت دون أمل في عودتها، يقف خلفها والعجز يكبله، بينما هي منشغلة بتفقد الزجاجات الصغيرة المتنوعة، ومن فرط الارتباك التفتت خلفها فأفزعتها رؤياه، وسقطت إحدى الزجاجات على الأرض، لتُكسر وتتناثر الشظايا التي تطايرت منها واحدة، وجرحت وجه جريجور.

وعلى عجل جمعت كل ما استطاعت حمله من الزجاجات دون تمييز، وهرعت نحو الأم موصدة الباب من ورائها بقدمها بعنف، وها قد أصبح جريجور معزولًا عن أمه التي قد تفقد حياتها بسببه، وآثر ألّا يفتح الباب؛ فلا يخيف الأخت فتهرب تاركة الأم بمفردها، ما عساه أن يفعل سوى الانتظار؟ القلق يعتصره، وتوبيخ النفس يجلده، مشاعر من الخزي واليأس أودت به إلى التصرف بعصبية؛ فراح يذهب جيئة وذهابًا، فوق كل شيء، فوق الجدران والأثاث، وفوق السقف، حتى بدأت تدور الحجرة به، وتدور بلا نهاية إلى أن سقط فوق منتصف الطاولة الكبيرة.

مضى وقت قصير منذ أن انطرح جريجور فوق الطاولة، أصابه الضعف الذي أسكنه إلى الاستلقاء دون حراك، الجو العام هادئ، وقد شعر لهذا بالارتياح، حتى دق جرس الباب. الخادمة تحبس نفسها بالمطبخ، ولا يوجد من يفتح الباب سوى أخته، إنه الوالد الذي ترددت كلماته فور رؤيته ابنته، وقد أفصحت ملامحها عن أن خطبًا قد وقع، فسألها:

«ما الذي حدث؟»

أجابته ورأسها منحنٍ بصوت مكتوم:

«فقدت أمي الوعي، ولكنها الآن أحسن، وجريجور انفلت من محبسه». عقب الوالد:

«هذا ما أخبرني به حدسي وحذرت منه، ولكن أحدًا لا يصغي».

ظن الوالد أن جريجور قد انطلق مرهبًا الأم، ومقترفًا أفعالًا عنيفة، مؤولًا حديث الأخت بالسوء. جريجور الآن في وضع بائس، وعليه امتصاص غضب الوالد، إلا أنه لم يكن عنده لا الوقت ولا الوسيلة لشرح أسبابه، وما كان منه إلا أن أسرع إلى حاشية باب غرفته يقف متلصصًا من حيث يظهر حسن نواياه أنه يريد الرجوع إلى محبسه، دون أن يضطر والده لاستخدام العصا، فقط كل ما يحتاج إليه أن يفتح أحدهم الباب، وسيختفي فورًا.

كان الوالد في غيظ وحنق لا يسعه فيهما أن يفهم نوايا جريجور، فلما رأى الوالد ابنه صرخ: «آه» كأنه وجد غايته غاضبًا وفرحًا في آن

واحد؛ أبعد جريجور رأسه عن الباب، ورفعه ناحية الوالد، إنه هو والده، ولكن ليس كما اعتاده، لعل الفترة الأخيرة غيرت فيه الكثير بالشكل الذي لا يمكن تصوره، وسأل نفسه سؤالًا: هل من المعقول أن يكون هذا هو والده؟

الرجل الذي كان يقضي يومه مستلقيًا في فراشه متكاسلًا، متمددًا في ثوبه الفضفاض، بينما جريجور لا يتوقف عن السفر، وعند عودته لا يكاد يحرك جسده الثقيل، إنما يرفع يديه دلالة على الترحاب وسروره بلقائه، هل هذا هو الوالد الذي كان لا يخرج إلا نادرًا في بعض أيام الأحد وفي المناسبات والأعياد منتصفًا جريجور والأم، يمشي ببطء أكبر منهما، وهما اللذان كانا يمشيان على مهل، متدثرًا بمعطفه العتيق، يمشي الهوينى وبيده عصاه معقوفة القبضة، تلك العصا التي كان يتعكز عليها، ولكن ما باله الآن يقف منتصبًا، يرتدي بذلة رسمية زرقاء ذات أزرار ذهبية تشبه زي سعاة المصرف، ياقة سترته المرتفعة مست حافة ذقنه، تصوب عيناه نظرات ثاقبة أسفل الحاجبين العريضين الكثيفين، وذلك الشعر الأشيب الذي لم يره إلا مشعثًا، ما به وقد أصبح ممشطًا ومفروقًا بفرق دقيق لامع؟!

ألقى الأب قبعته التي تحمل شعارًا ذهبيًّا فوق الكنبة، دَسَّ كفيه بداخل جيب بنطاله، وتقدم نحو جريجور مكفهر الوجه، مرتبًا بداخل نفسه أفكاره تجاه جريجور، وما الذي بالفعل ينوي فعله معه، رفع قدمه الضخم بحذر، فتعجب جريجور من ضخامة الحذاء، وكان يدرك أن والده لا يرى طريقة للتعامل مع وضعه الجديد إلا بالقسوة المفرطة.

أدرك أن والده سيتعرض له بالأذى؛ ففر من أمامه، واقفًا كلما وقف، راكضًا كلما قام والده بأي حركة، كان ذلك رد فعل جريجور إزاء أفعال والده، وعلى هذا النحو طاف حول الغرفة مرات يعقبها مرات ببطء، لم يترك جريجور الغرفة مخافة أن يعتقد الوالد أن جريجور يهرب منه بمكر، أمام كل خطوة من خطوات الأب كان جريجور يقابلها بعدة حركات، ولم يكن لجريجور أن يتحمل أكثر من ذلك، فها قد بدأ يشعر بضيق في التنفس، تضطرب رئتاه اللتان لم تكونا بخير حتى من قبل تحوّله، أعياه التعب وهو يحاول الهرب أمام والده، مراقبًا أفعاله، يترنح وقد تبلد ذهنه، لا يجد حيلة يستخدمها للحيلولة دون القسوة التي تنتظره، وأي سبيل له غير الجري دون هدف؟ قطع الأثاث تعوق حركته، وحتى الجدران ليست متاحة هنا، فقد ملأتها الشقوق والنتوءات فهي ليست مرتعًا مناسبًا له.

تفاحة قُذفت ناحيته، لم تمسه، ولكن تدحرجت أمامه، تبعتها تفاحة أخرى فأخرى، حتى إن جريجور ارتبك وكَفَّ عن الجري، فما

جدوى ركضه وقد أصبح هدفًا سهلًا يُصوب نحوه، والوالد مصمم على أن يصيبه، لقد ملأ جيوبه بالفاكهة من الطبق فوق الطاولة، وراح بشكل عشوائي يلقي التفاحات الحمراء، فكانت تدحرج منزلقة مرتعشة فوق الأرض تصطدم ببعضها، واحدة منهم قذفت بتصويب دقيق؛ فمست ظهر جريجور مسًّا خفيفًا، لحقتها أخرى قذفت بشكل أعنف؛ فانغرست في ظهر جريجور، أراد أن يتفاداها لكن ألمًا صاعقًا لحق به على حين غرة، وكأن التفاحة سمرته في الحائط؛ فلم يعد قادرًا على التحرك؛ ارتعش واستسلم.

جاءه العون من ناحية حجرته، لفت نظره الباب الذي انفتح على غفلة بضربة قوية، وقد خرجت منه الأم في تنورة خفيفة تحتية بعدما حررتها ابنتها من ملابسها للتنفس بشكل أفضل، أقبلت نحو الوالد تتوسل إليه أن يترك ابنها جريجور.

***

لم يجرؤ أحد على انتزاع التفاحة التي التصقت بظهر جريجور، تاركةً جرحًا عميقًا كذكرى له لهذا الموقف المؤسف. عانى جريجور لشهر من إصابته الخطيرة، حتى أنها ربما حركت بداخل الوالد شعورا بالشجن تجاه جريجور، فهو في النهاية كان ذات يوم فردا من أفراد الأسرة، رغم شكله المتحول الغريب، فكيف يُعامل كعدو؟ فما الحل سوى الصبر وإمساك النفس ولا حل آخر سوى الصبر.

لم يعد جريجور بعد الإصابة متمتعا بكامل لياقته، تحول لعجوز مقعد يتحرك ببطء، ليعبر الحجرة يحتاج لدقائق عدة، أما الزحف إلى السقف فقد أصبح أمنية بعيدة المنال. ربما حاولت الأسرة مواساته بترك باب حجرة الجلوس مفتوحا عند المساء، يراهم من ظلام غرفته دون أن يروه، جالسين حول طاولة ينتصفها مصباح، يشاركهم أحاديثهم بالاستماع فقط، على علم منهم بأنه قريب، لكن هيهات أن يكون الحال كما في السابق.

نضبت أحاديث الأسرة المسلية التي كان يشتاق جريجور لسماعها في الأيام الخوالي بينما هو مستلقيا في حجرات الفنادق في أسفاره. وأما الآن وبعد تناول العشاء ها هو الأب مستلق فوق المقعد المنجد الطري حين يرجع، تنبه الأم والأخت بعضيهما على الصمت والهدوء بينما تحيك الأم ملابس ناعمة داخلية لأحد المحال، والابنة التي عملت كبائعة في أحد المتاجر، تدرس في تلك الليالي اللغة الفرنسية لتكون مؤهلة لعمل آخر، يفيق الوالد من نومه المتقطع فيوجه حديثه للأم «ما أكثر ما قمت به من أعمال هذا اليوم» ثم يرجع إلى سباته، فتتبادل الأم والابنة هذه النظرة الساخرة واليائسة.

ترك الوالد ثوبه المريح الفضفاض، رافضا أن يخلع زيه الرسمي، يقيم به حتى في فترات بقائه بالمنزل، ينام فيه ثم يصحو قاعدا به، كأنما أراد أن يوحي لنفسه ولأفراد أسرته أنه مازال قادرا على العمل مستعدا له في أي وقت، وجاهزًا لتلقي أوامر مديره، ومع مرور الوقت فقدت البذلة بريقها، وهي وان كانت قديمة فقد كانت الأم والأخت يعنيان بها أحسن عناية، كثيرًا ما كان جريجور يقضي الليالي يتأمل جمالها وهيبتها بأزرارها الذهبية المصقولة، بينما العجوز نائما بهدوء وأمان.

وما أن تحل الساعة العاشرة حتى تقوم الأم بإيقاظ والده بكلمات عطف توحي بالشفقة وهي تذكره أن نوم كهذا لا يمكن أن يكون مفيدا لصحته، وأن صحته هي جل ما يحتاجها هو والأسرة، وان كان مصمما على العمل فليستيقظ على الساعة السادسة صباحا، وهو ومنذ أن استلم عمله كعامل فقد استسلم لنوبات سكون، يقضيها أمام المائدة، حتى ينام دون بذل جهد في الانتقال من الكرسي إلى سريره، برغم نصح الابنة والزوجة له باللطف إلا أنه كان يصر على عناده يهز رأسه لربع ساعة وعيناه مغمضتان لكن دون جدوى، تتودد له الزوجة في أذنه بكلمات ناعمة رقيقة وتترك الابنة دروسها لتساعد والدتها ولكن أيضًا دون تأثير، يزيده توددهما غوصًا في كرسيه، حتى لا تجدا سوى رفعه من ذراعيه فيفتح حينها عينيه وينظر إليهما واحدة تلو أخرى مرددًا نفس كلماته «إن هذا ما يجب أن تكون عليه حياتي: الأمن والهدوء اللذان من المفترض أن أنعم بهما في شيخوختي». ثم يستند عليهما لينهض متثاقلا على نفسه، تاركا نفسها لهما يسحبانه حتى باب الغرفة ثم يشير لهما أن يتركانه يمضي بمفرده، ولكن سرعان ما تلقي الأم أشغالها وتلقي الابنة قلمها ويهرعان إليه يساعدانه كي لا يوقع نفسه.

ساءت أحوال الأسرة التي أصبحت تعمل في دأب مرهقة مجهدة فمن أين لهم أن يأتوا بالوقت للاهتمام بجريجور اهتماما زائدًا عن حاجته الضرورية، أصبح الطعام يشح يوما بعد يوم وتم تسريح الخادمة واستبدالها بأخرى عجوز تعمل بالساعة، ذات عظام بارزة وشعر أبيض متناثر كتاج منصوب فوق رأسها، تأتي مرتين، مرة في الصباح وأخرى في المساء، تقوم بمهماتها وغالبًا ما تكون أكثر مهمات المنزل مشقة، وما تبقى فقد كانت تأخذه الأم فوق عاتقها، إلى جانب أعمال الحياكة، وآل بهم الحال إلى بيع الحلي التي كانت تتباها بها الأم والابنة في المناسبات، عرف جريجور بهذا حينما كانت الأسرة مجتمعة تتناقش حول الثمن الذي بيعت به.

كان السكن هو أكبر عوائقهم، أنهم ومع حجم جريجور لن يستطيعوا الانتقال لشقة أصغر، رجح جريجور أن عدم انتقالهم لشقة أخرى ليست ظروفه، فهو يُمكن أن يُحمل بداخل صندوق يحتوي على فتحات تهوية، ولكنها الفضيحة واليأس. فما من أحد من معارف أو أقارب قد مر بمصيبة كتلك.

بدأت تعيش الأسرة حال الفقراء، يحمل الوالد الطعام يبيعه إلى موظفي المصرف، وتجهد الوالدة نفسها في حياكة الملابس الداخلية للغرباء، وتركض الأخت جيئة وذهابا بين الطاولات ملبية مطالب الزبائن، تلك آخر مقومات الأسرة في العناية بجريجور، الجرح الذي في ظهره يتجدد ولا يلتئم ويؤلمه عن السابق. أكثر الشقاء اقتسمته الأم مع الابنة، ما ان يوصلان الوالد إلى فراشه حتى يجلسان قبالة بعضيهما البعض واضعتين يداهما فوق خديهما. تشير الأم لابنتها أن تغلق الباب على جريجور، يرجع إلى ظلامه الدامس في الحجرة، بينما تتمازج دمعات الأم بدمعات الأخت.

أصاب جريجور الأرق لا يكاد ينام ليلًا أو نهارًا تقريبًا، يخيل له وهو بحالته تلك، أنه إذا انفتح الباب أمامه سيقدر على تولي شئون الأسرة مرة أخرى، ثم راحت الذاكرة تأخذه لصور مدير الشركة والموظفين وكبير الموظفين والمساعدين والعمال، وهذا البواب المتبلد ودار بخلده صديقين ثلاثة من شركات أخرى وتلك الذكرى العذبة مع أحد منظفات الغرف في منطقة ريفية، وفتاة أحبها وخطبها كانت تعمل في محل قبعات، مرت الذكريات سربا بخياله مختلطة بذكرى لأغراب نسيهم، لكنه كان يمسح الذكرى سريعا حين يتذكر أن أحدًا منهم لم يساعد أهله.

أيام أخرى تتغير نفسيته فلا يفكر في أهله إنما يملؤه الغيظ من سوء معاملتهم له ومن سوء رعايتهم. تناقصت شهيته وأصبح الطعام لا يغريه، إنه يريد لو يختار طعامه بنفسه، يذهب لحجرة الخزين وينتقي ما يشاء كحق من حقوقه، كفرد من أهل المنزل سواء كان جائعًا أم لا.

تهاونت الأخت أيضًا معه، ما تلبث في زياراتها له حتى تغلق الباب عليه مرة أخرى لتلحق بعملها، دافعة باب الغرفة بسرعة بقدمها، تضع له أيا كان من الطعام ثم تعود في المساء فتلملمه مرة واحدة بالمكنسة، غير آبهة هل أكل منه أم لم يتذوقه، وفي أغلب الأيام لم يكن يتذوقه. أما عن ترتيب الغرفة فلم يكن هنالك الوقت، بدأت القذارة ترسم خطوطًا فوق الجدران، وقد تكور الغبار مع الروث، وكي يلفت انتباه الأخت، كان جريجور يستلقي وسط أكثر ركن تراكمت فيه القذارة، كنوع من اللوم والعتاب، و لكن ولو ظل على حاله لأسابيع ما كان ليحصل من أخته على اهتمام أكثر مما كانت تؤديه، إنها ترى اتساخ الحجرة تماما مثلما يراها، و لكنها لم تعد تهتم.

حدث في يوم أن قررت الأم أن تنظف حجرة جريجور بنفسها، نظفتها بعناء كبير كلف عددا من دلاء الماء، لم يعجب الماء جريجور،

انه يفضل أن تكون حجرته جافة على أن تنظف، فاستلقى فوق الكنبة لحين انتهاء الأم من عملها، لم تسلم الأم من الابنة التي تذمرت كثيرا حينما رأت ما حل بالحجرة، فشعرت بإهانة وتجرؤ على أحد مهامها فانفجرت غاضبة أمام والدتها في حجرة الجلوس تبكي بكاء حارًا لا يتفق مع الموقف، بسطت الأم يداها تترجاها أن تتوقف وجفل الأب من كرسيه واقفا بين الاثنتين، الأم عن يمينه يلومها على اعتدائها على حق الابنة في تولي أمر جريجور بنفسها، وعن شماله الابنة ينهاها عن تنظيف حجرة جريجور مرة أخرى، استبد الغضب بالوالد الذي فقد تحكمه في أعصابه فراح في نوبة هياج، ومعه ازداد توتر البنت فعلا نحيبها وهي تضرب سطح الطاولة بكفتيها الصغيرتين، وضاق صدر جريجور بما سمعه فلو أنهم أغلقوا الباب لكان من الأفضل له عن رؤية هذا المشهد، وعلامة على غضبه كان يصدر صوت زمجرة وصفير عال، ولتهدئ من الموقف المحتد أمسكت الأم بذراع الوالد تهدئ من روعه وهي تشده ناحية غرفة النوم.

إنه لا مبرر لهذا الموقف، فلو افترض أن إهمال الابنة له أسبابه كونها مرهقة بعملها وعدد ساعات الدوام الطويلة، وربما الملل والرتابة من أداء دور ولية الأمر لجريجور المتكفلة به، فهي ليست أسبابًا وافرة لإهماله. ولم يكن إضافة إلى ذلك هنالك داع في تصرف الأم دون إخبار الابنة ما دامت الأخيرة ستنزعج، وفي كلتا الحالتين فالخادمة متوفرة.

إنها امرأة عجوز قوية البنية والتحمل ولا بد من أنها مرت بتجارب سيئة في حياتها تجعلها لا تشمئز من منظر جريجور، وبالفعل فتحت غرفة جريجور ولم يكن ذلك تحت وطأة الفضول، ففزع جريجور وأخذ يعدو جيئة وذهابًا، شاعرًا بالخوف الشديد رغم أن أحدًا لم يكن يطارده، على عكس موقف الخادمة العجوز التي تحلت برباطة الجأش. صحيح أنها تعجبت من منظره ولكنها مع ذلك ظلت واقفة مشبكة يديها بعضهما البعض تنتظر انتهاء المشهد الاستعراضي لجريجور.

أصبح جريجور منذ ذلك الحين أليفًا بالنسبة للخادمة، لم تكن لتفوت إلقاء نظرة عليه ولو للحظات صباح مساء، تهتف عليه بكلمات في حسن نية من باب التودد كمثل «تعال هنا يا خنفساء الروث العجوز» وأحيانًا «انظروا إلى خنفساء الروث الضخمة العجوز» ولم يكن جريجور يبدي أي ردة فعل سوى الثبات كصنم، كأنها غير موجودة وكأن الباب لم يفتح من الأساس. في رأيه أنه من الأفضل لو طلبوا منها الاهتمام بحجرته بدلًا من تركها تسخر منه من دون جدوى لكلماتها.

ذات صباح حدث أن جريجور كاد أن يحتك بالخادمة، ففي هذا الصباح بدت أن بشائر الربيع قد حلت فالمطر يقرع الزجاج بشدة والرياح تصفر، كانت الأصوات تثيره وتربكه، ومع اختلاطها بكلمات الخادمة المتهكمة ازداد سخطه وتبدل مزاجه ليقترب منها، ينوي مهاجمتها. وما كان من الخادمة إلا أن التقطت كرسيًّا من خلف الباب ورفعته عاليا، حركة جريجور كانت بطيئة ومتحفزة، والخادمة لم تخف بل فتحت فمها بما يوحي بأنها لن تغلقه إلا إذا هوت بالكرسي على ظهر جريجور وهددته «فيما يبدو أنك لن تقترب أكثر أليس كذلك؟» بعدها استدار جريجور عائدًا أدراجه، وأعادت هي الكرسي إلى مكانه.

حالة جريجور النفسية تؤول من سيئ إلى أسوأ، لم يعد يأكل تقريبًا، يضع لقمة في فمه ويمضغها طوال اليوم على سبيل التسلية ثم يلفظها مرة أخرى، كان يحسب أن الاكتئاب سببه حال الغرفة الجديد الذي اعتاد عليه في النهاية، إنما اكتئابه وما حز في نفسه هو أن حجرته أصبحت مقلبًا لكل ما ليس فيه نفع للأسرة والمنزل، وكل ما لا تتسعه مساحة البيت، إذ أن حجرة من حجرات المنزل قد أُجرت، وتم إخلاؤها لثلاثة من الرجال تظهر الهيبة على وجوههم ولحاهم، لمحهم جريجور ذات مرة من شق الباب، وكان الثلاثة محافظين على النظام، لهم ترتيبهم الخاص ليس لحجرتهم ولكن للمنزل ككل ما داموا أصبحوا من قاطنيه، خاصة كل ما هو زائد عن الحاجة ومتسخ، وعلى هذا فقد أحضروا معهم أثاثهم الخاص مستبدلينه بالقديم، وأصبح هنالك فائض من الأشياء غير اللازمة والتي لا يمكن بيعها، ولكن الأسرة تود أيضًا الاحتفاظ بها، وكلها آلت في النهاية إلى حجرة جريجور، كصفيحة الرماد وصفيحة القمامة، وكل ما هو غير قابل للاستخدام في الوقت الحالي.

وقد تولت الخادمة هذه المأمورية تقوم بها على عجل وربما كان لها تخطيط في اقتناء هذه الكراكيب في وقت لاحق، وكان جريجور يرى ما يُقذف واليد الممسكة بالشيء المقذوف، وتظل تلك الأشياء قابعة في مكانها الذي ألقت فيه، إلى أن يشق جريجور طريقه بينها ويزيحها بنفسه، في بادئ الأمر أخذ الموضوع من باب الضرورة حتى يتمكن من التحرك بسلاسة ثم أخذ الوضع يأخذ شكل التسلية، يلعب لعبته هذه حتى يستبد به التعب، فيستلقي لساعات مرهقًا حزينًا إلى حد الموت.

اعتاد جريجور أن يغلق عليه باب الغرفة لأوقات طويلة، خاصة تلك الأوقات التي يتناول فيها المستأجرون الأغراب العشاء في المنزل، لم يزعجه انغلاق الباب عليه بل على العكس كان الوضع أيسر بالنسبة له وحتى في الليالي التي يكون فيها الباب مفتوحًا كان يتخذ أكثر بقعة مظلمة مستقرًا له.

ولقد شاء القدر أن يرى جريجور ما كان من الأسرة من حفاوة بالغرباء، إذ أن الخادمة نسيت الباب مفتوح ورأى منه قدوم المستأجرين عند المساء، وقد أضيء لهم المصباح، فجلسوا عند طرف مقدمة المائدة حيثما كان جريجور والأم والأب يجلسون في الأيام الخوالي الماضية، بسطوا فوط السفرة وأمسك كل منهم بالشوكة والسكين.

ظهرت الأم من الباب الآخر تحمل طبقًا من اللحم، ومن خلفها مباشرة أتت الأخت وبين يديها طبق رصت فوقه كومة من البطاطا، الطعام ساخن ينفث بخارًا كثيفًا متصاعدًا، انحنى المستأجرون على الطبقين يتفحصونهما، وقد اقتطع الرجل الذي يجلس في المنتصف والذي من الواضح أن له كلمة مسموعة بينهم، قطعة من اللحم ووضعها في الطبق ليختبرها إن كانت طرية أم من المفترض أن تعاد للمطبخ.

فإذا تأكد من سلامتها تنهدت الأم والابنة اللتان تراقبان موقفه. أما الأسرة نفسها فكانت تتناول طعامها بالمطبخ، وكان الأب يبدي اهتمامه براحة الضيوف قبل دخوله المطبخ لتناول طعامه، فكان يطوف بالمائدة مبالغًا في الانحناء يمسك قبعته بيده في إجلال، واحترامًا له كان المستأجرون يقفون، تتحرك شفاههم وسط لحاهم بغمغمة، وما إن يتركهم حتى يرجعون لتناول طعامهم من جديد.

صوت أسنانهم أثناء تناولهم الطعام كان يلفت انتباه جريجور دائمًا، يوحي له بنقص فيه، ليأكل الإنسان فلا بد له من أسنان، فماذا يصنع بفكين قويين دون صفي أسنان، وبينما فكره مشغول بالفك والأسنان، حدثته نفسه مشفقة على حاله: «إنني لأشتهي الطعام، أكاد أموت جوعًا، وهؤلاء المستأجرون ينعمون بالغذاء، لكن ليس هذا هو الطعام الذي أريده».

في هذا المساء سمع جريجور صوت عزف الكمان، لأول مرة منذ تحوله، تعالى الصوت قادمًا من المطبخ، كان المستأجرون قد انتهوا من تناول العشاء، والرجل الجالس في المنتصف أخرج من معطفه جريدة معطيًا لكل واحد من زميليه ورقة منها، وراح الثلاثة يتصفحون الأخبار، متكئين بظهورهم على المقاعد، بينما يدخنون التبغ، انتبهت آذانهم لصوت الكمان حينما بدأ العزف، وقفوا، ثم مشوا ببطء وهدوء إلى باب الصالة، ووقفوا يستمعون.

من الظاهر أن حركات المستأجرين سُمعت من قِبَلِ أهل البيت؛ فسأل الوالد متوجسًا بصوت عالٍ:

«هل العزف يزعجكم أيها السادة؟ لنوقفه في الحال».

قال كبيرهم الذي دائمًا ما ينتصف المجلس:

«بل على العكس، إننا لنطلب من الآنسة أن تتفضل بالتقدم إلى حجرة الجلوس وتعزف بيننا، إن الجو في هذه الغرفة ملائم وأكثر هدوءًا».

صاح الوالد نيابة عن ابنته:

«أوه بالطبع».

ورجع الرجال لأماكنهم منتظرين، في الحال وصل الوالد حاملًا أوراق النوتة الموسيقية، وكانت الأم تحمل بقية النوتة، والكمان في يد الابنة التي أعدت كل شيء سريعًا، وإمعانًا في مجاملة المستأجرين ظل الوالد واقفًا مستندًا على ظهر الباب، ويده اليمنى فردها بين زرين من أزرار بذلته الرسمية، وحصلت الأم على كرسي معزول في أحد أركان الصالة، حَدَّدَ المستأجرين مكانه في هذا الركن بالتحديد.

شرعت الأخت في العزف يراقبها الأب والأم، يتابعان حركات يديها في اهتمام بالغ، أما جريجور فقد اقترب من الباب بحذر، يخرج رأسه قليلًا، ويخرج رأسه قليلًا، لا يريد أن يراه أحد؛ لأنه لم يعد يعنيه أحد، إضافة إلى أسباب أخرى تخص مظهره، إذ إنه أصبح مغبرًا من جراء الغبار الذي يملأ غرفته، ويتطاير ليحط فوق كل شيء لدى أدنى حركة، ومع الغبار تعلق بظهره وبين جانبيه زغب، وشعر، وبقايا طعام، بعدما فقد الرغبة في تنظيف نفسه بالانقلاب على ظهره فوق السجادة، كما كان يفعل من قبل عدة مرات في اليوم، لكن جريجور غامر بالتقدم إلى حجرة الجلوس يسحبه صوت العزف.

الأسرة المستغرقة في أنغام الكمان لم تنتبه لتقدم جريجور، والمستأجرون الذين وقفوا مدهوشين في البداية وأيديهم بداخل جيوبهم، بالقرب من حامل النوتة قريبين جدًّا حتى إنهم من الممكن لهم قراءة النوتة؛ مما أربك الأخت من دون شك، ولكن ما لبثوا حتى ابتعدوا منسحبين إلى النافذة، يتهامسون من فينة لفينة برؤوس مطأطئة، يراقبهم الوالد بقلق هل لم يعجبهم العزف، أم أنهم اكتفوا منه؟ وعدم إعلانهم بما خالج أنفسهم ما هو إلا مجاملة للابنة وأبويها، وقد ربط بين هذه النتيجة وطريقة تدخينهم للسيجار الذي كانوا ينفثون دخانه من الأنف والفم عاليًا في الهواء، برغم أن عزف الابنة جميلًا جدًّا، تعزف بطريقة مدهشة، وجهها مائل إلى جانب واحد بعيون يملؤها الشجن، تتابع مركزة قراءة النوتة.

زحف جريجور متقدمًا للأمام قليلًا، وأبقى رأسه قريبًا من الأرض حتى يتعامد نظره باستقامة، فتتلاقى عيناه بعيني أخته، كيف لحيوان أن تؤثر فيه الموسيقى كل هذا التأثير؟

وشعر بأن الطريق قد فُتِحَ أمام ما يشتهيه، وقرر التقدم أكثر إلى أن يصل لأخته، وأن يجذبها من تنورتها فتنتبه له، ثم يشير له أن تتبعه بكمانها إلى حجرته فلا تعزف لأحد غيره؛ لأنه لن يُقدِّر أي أحد عزفها سواه، يود لو ظلت بغرفته لا تبرحها، ما دام هو على قيد الحياة، إنه الآن فقط أحب منظره البشع الذي يستطيع بواسطته إخافة الأغراب حين يقف قرب الأبواب جميعًا، ويفح في وجوههم، دون أن تخاف الأخت التي ستجلس إلى جواره فوق الكنبة كما كان يجلسان، وسوف تقرب أذنها منه ليخبرها بالسر أنه قد عقد النية على إرسالها لمعهد الموسيقى العالي، وأنه لولا ما ابتلي به كان سيعترف بنيته لجميع أفراد الأسرة، لا يهمه أي اعتراض، لكن مهلًا، هل مضى عيد الميلاد؟ وسوف تتأثر الأخت بكلامه ومشاعره الطيبة، وستنفجر في البكاء، حينها سيرق قلب جريجور لها رافعًا نفسه إلى كتفها، ويطبع قبلة على جيدها الذي منذ أن قررت العمل اعتادت على تركه دون طوق أو ياقة.

هتف المستأجر الأوسط «يا سيد سامسا» مشيرًا بسبابته إلى جريجور الزاحف للأمام ببطء، هنا انخرس الكمان أمام ابتسامة المستأجر التي وزعها على زميليه، هَزَّ رأسه في تعجب، ثم أعاد النظر إلى جريجور، احتار الوالد بين طرد جريجور وشرح الموقف للمستأجرين، بأيهما يبدأ، ولكنه فضل تهدئة المستأجرين، وشرح حيثيات المشهد لهم، الوضع الذي لم يكن يحتاج لتبرير منه؛ لأنهم لم يثوروا ولم تظهر عليهم علامات عدم الارتياح، بل على العكس وجدوا أن مرافقة جريجور أكثر إمتاعًا من سماع الكمان.

بسط الوالد يديه يحول بينهم وبين رؤية جريجور، يحثهم على الذهاب لحجرتهم، هنا بالفعل غضب الأغراب، وطلبوا تفسيرًا بينما يزيحون ذراعي الوالد، ويشدون لحاهم في حنق، لا أحد يعلم سريرتهم، فهل كان غضبهم من تصرف الوالد غير اللائق؟ أم من تعتيم الأسرة على وجود هذا الكائن الساكن في المنزل معهم؟ ثم اتجهوا لغرفتهم متباطئين.

غطى الذهول ملامح الأخت؛ فوقفت في استسلام، تتدلى يداها واحدة ممسكة بالقوس والأخرى بالكمان، تحدق في النوتة كأنها تقرأها في تركيز، ولم تستجمع صوابها إلا بعدما رحل المستأجرون، وضعت الكمان بين ذراعي الأم التي أُصيبت بنوبة ضيق التنفس، يرتفع صدرها وينخفض، ثم هرعت الأخت تركض إلى الحجرة المجاورة، أصابتها حالة غريبة، جعلتها تصل إلى غرفة الأغراب تساويها وتنظمها في سرعة زائدة، وقبل أن يصلوا كانت قد أتمت مهمتها، وخرج الوالد عن طوره، ونسي كل احترام أبداه لهم من قبل، وراح يسوقهم للأمام ويدفعهم؛ مما أصابهم بالغضب حتى إن الرجل صاحب الكلمة أخذ يضرب الأرض بقدمه بقوة عند باب الحجرة، ونظر للوالد قائلًا:

«أعلن أنني وبسبب ظروف العائلة المقززة التي تسود أرجاء المنزل – هنا بصق فج-أة على الأرض –ألغي عقد إيجاري دون دفع أي نقود مطلقًا، بل على العكس فإنني أمتلك الحجج التي تجعلني أطالبكم بدفع تعويض».

وصمت ناظرًا أمامه منتظرًا حدثًا ما، وبالفعل صدق حدسه؛ إذ إن صديقيه قالا في آن واحد: «ونحن أيضًا نلغي عقدنا في الحال» ثم أمسك بمقبض الباب، ودخل الحجرة، ثم أوصد الباب بشدة.

اختل توازن الوالد وترنح، بينما تتلمس يداه طريقًا إلى الكرسي، ثم ألقى بنفسه ساكنًا كما لو كان يستعد لغفوة المساء، لكن كان برأسه ما يشبه اهتزازات الزلزال؛ أبعدته تمام البعد عن النوم، أما جريجور فقد ظل على حاله في نفس الموضع الذي اكتشفه فيه المستأجرون، خائب الأمل من فشل خطته، ضعيفًا من شدة الجوع، غير قادر على الحركة، يشعر أن كل شيء سينهار من حوله، بل متأكدًا من أن هذا سيحدث له، الغريب أنه لم يشعر بالخوف.

أما الأخت فقد ضربت بيدها فوق الطاولة قائلة: «والديّ العزيزين، علينا وضع حدٍّ لما يحدث، فلا يمكن للحياة أن تستمر بهذا الوضع، إن كنتما غير قادرين على مواجهة الحقيقة وإدراكها؛ فإنني قادرة، حتى إنني لا أستطيع الربط بين هذا المسخ وبين اسم أخي؛ لذا فإن كل ما أستطيع أن أقوله هو أن علينا التخلص من هذا المخلوق، لقد فعلنا ما في وسعنا للاهتمام به، وصبرنا لأقصى حد من الممكن أن يصبره إنسان، وإننا إن قتلناه فلن يستطيع أي شخص أن يلومنا».

أسر الوالد بداخل نفسه: «إنها محقة تمامًا، لألف مرة محقة» أما الأم التي ما زالت تسعل واضعة يدها فوق فمها بعد أزمة التنفس التي حاقت بها من أثر الصدمة، كان الشرر ينطلق من عينيها بنظرات جاحظة، اندفعت الابنة ناحية الأم تمسك بجبينها، ومع حالة الأم كان الأب قد حسم أمره تجاه جريجور؛ فاعتدل في جلسته، وراحت أصابعه تدير قبعة عمله الملقاة وسط الأطباق التي ما تزال مرصوصة، يرسل نظراته من فينة لأخرى إلى جريجور البائس.

«يجب أن نحاول التخلص منه» كررتها مرة أخرى، تاركة الأم تسعل، ووجهت طلبها للوالد، السعال الشديد أصم أذني الأم عن سماع أي شيء، ثم أكملت الفتاة: «إنه سوف يقضي عليكما لا محالة، إن الحياة شاقة في أصلها، فكيف تحمل شقاءً فوقها؟ شقاء لا يُحتمل، وهو أبدي مستمر، ولا أمل من انتهائه، أنا بالأصالة عن نفسي لا أستطيع تحمل هذا العذاب» ثم راحت في نوبة بكاء تساقطت فيها دموعها فوق وجه الأم؛ فمسحتها بشكل تلقائي.

قال الوالد مشفقًا: «أيتها الطفلة» ثم نظر نحوها في عطف «ولكن ما الذي نستطيع فعله؟» اكتفت الفتاة بهز منكبيها في شكل من أشكال قلة الحيلة، عقب الوالد: «لو كان في مقدرته فهمنا»، فلوحت الأخت بيديها نافية أن يحدث ذلك، وكانت لا تزال تنوح، ولكن الوالد كرر عبارته: «لو كان في مقدرته أن يفهمنا» ثم أغمض عينيه وهو متفهم لموقف الابنة، وقال: «لو كان في ميسوره الفهم لعقدنا اتفاقًا معه، ولكن وبما أنه لن يستطيع»

«علينا الانتهاء منه» هكذا صرخت الابنة، ثم قالت: «إنه الحل الوحيد يا والدي، علينا أن نتخلص من فكرة أنه جريجور، فهذا الظن هو سبب مصيبتنا، ولكن بالاحتكام إلى العقل كيف يكون ذلك المخلوق هو بالفعل جريجور؟ وحتى لو كان جريجور لأخذته الرأفة بنا، وأدرك أن الحياة المشتركة بين الإنسان والمسخ أمر مستحيل، ولذهب لحال سبيله، وعندئذٍ سأفقد أخي، ولكن كنا سنبقي على ذكراه حية مكرمة، ولكن الواقع يقول إننا نعيش مع مخلوق يدمر حياتنا، ويطرد مستأجرينا، إنه على ما يبدو يريد احتلال الشقة؛ فتصبح عرينه، ونرحل نحن إلى الشارع» وفي صيحة عالية قالت: «انظر يا أبي، إنه يبدأ من جديد، يريد إرهابنا مرة أخرى» قالتها بخوف زائد عن حده، حتى إن جريجور لم يفهمها، ثم انتزعت نفسها من المقعد انتزاع الشوكة من اللحم، ودفعت بأمها كما لو كانت على الاستعداد للتضحية بها في سبيل عدم الاقتراب من جريجور، مندفعة تهرول مبتعدة لتقف خلف الوالد الذي وقف فزعًا، وبسط ذراعيه مستعدًا لحمايتها من أي هجوم قد يشنه عليها جريجور.

إن جريجور لم يكن بباله كل ما أوردته أخته في كلامها، لا يمكن أن يرهب أسرته خاصة أخته، وكل ما فعله هو أن ارتد مستديرًا للعودة لحجرته، ولكن حتى هذه الحركة باتت إشارة خطر، خاصة أنه وبسبب حاله المزري أصبحت الاستدارة صعبة عليه، ولكي يفعلها كان عليه رفع رأسه على مراحل لعدة مرات، وفي كل مرة رأسه كانت تسقط منه، تكاد ترتطم بالأرض، وبعد يأس توقف، وألقى نظرة خاضعة، فبدا للجميع أنه لم يضمر شرًّا، وأن نواياه طيبة، ولما تحققوا من ذلك راحوا ينظرون إلى جريجور نظرةً اختلط فيها الصمت بالحزن.

الأم ممدة فوق كرسيها، وقد مدت ساقيها متصلبتين، تضغط الواحدة على الأخرى، تغمض عينها من شدة ما أصابها من إعياء، وكانا الأب والابنة في هذا المشهد الدرامي جالسين جنبًا لجنب، وقد لفَّت الأخت ذراعها حول رقبة الوالد.

ولما اطمأن جريجور حدث نفسه قائلًا «وأما الآن فإنه مسموح لي بالاستدارة»، واستدار عائدًا وهو يلهث من شدة الضعف والتعب؛ لذا كان عليه أن يستريح بين خطوة وأخرى، ولم يمسك له الوالد العصا هذه المرة، ولم تفر الأخت، ولم يغشَ على الأم، تُرك لحال سبيله.

وبعد أن استدار تمامًا زحف دون توقف عائدًا إلى حجرته، ولما وصل تعجب من طول المسافة الفاصلة بين موقعه وباب الحجرة، وكيف قطعها مع ضعفه وسوء حالته، وكيف أنه قطع نفس المسافة من فترة وجيزة دون أن يشعر أو يلاحظ وقتما كان يستمع لصوت الكمان، وكل همه هو الوصول إلى أخته، لم يشعر بالتعب وقتها، ولم تصدر من الأسرة أي كلمة تزعجه حتى وصل إلى الباب، ولم يدر رأسه إلا حين وصل باب حجرته، أراد أن يلقى نظرة أخيرة خلفه، لكنه لم يستطع أن يدير رأسه إذ تسمرت عضلات رقبته وتصلبت؛ فاستدار بصعوبة ليرى إن كان شيئًا تغير بعد رحيله، لكن الحال كان كما هو، باستثناء أن الأخت وقفت على قدميها، فألقى نظرة على الأم التي كانت تغط في النوم، وما إن دخل غرفته حتى أغلق الباب عليه وأوصد بالمزلاج والقفل.

كانت الأخت متحفزة للحظة دخوله حجرته، وما إن دخل حتى وثبت في رشاقة، وحركت المفتاح في القفل قائلة «أخيرًا».

وبعد أن أصبح في الظلام وحيدًا سأل نفسه: «والآن؟» وأكتشف أنه لم يعد يستطيع مطلقًا، لم يندهش، فإنه لم يكن طبيعيًّا أن تتحرك من الأساس هذه الأرجل المرتعشة. وفيما عدا ضعفه فقد كان يحس وهو في عزلته بالراحة نسبيًّا، إن جسده كله يؤلمه، لكنه شعر بأن ألمه قريبًا سيتلاشى كله، فما عاد يحس لا بالتفاحة الملتصقة في ظهره، ولا بوجع المنطقة الملتهبة حولها والمغطاة بالدقيق، كل ما شعر به هو إحساسه بالحنان والحب تجاه أسرته، إن أخته على حق، عليه الرحيل، وهو أكثر منها الآن تشبثًا بالقرار، سوف يرحل من أجلهم كما عاش من أجلهم.

ظل جريجور وحيدًا بين أفكاره وتأمله الهادئ وسط الظلام شبه فاقد للوعي، حتى أعلنت ساعة البرج الثالثة صباحًا، حينها أعاده للحياة أول شعاع للنور رآه خارج نافذته، فعاش أول لحظات الصباح، وسقطت بعدها رأسه، وزفر آخر أنفاسه.

حين وصلت الخادمة مع أولى ساعات الصبح المبكرة، وبحكم قوتها وخفتها فإنها تقوم وبسرعة في فتح الأبواب بضجة مهما طلب منها وترجى أهل المنزل بعدم تكرار هذا الفعل، فمن الصعب أن يهنأ أحد بنوم هادئ في ساعات الصباح بسبب تصرفها، في هذا الصباح بدا لها أن كل شيء على حاله في حجرة جريجور، إنه يتعمد الاستلقاء مبديًا شعورًا بالحزن لإهانتها له، إنها تنعته بالمتباكي الذكي الذي يراوغها، وللحظ إنها كانت تحمل بيدها مكنسة ذات عصا طويلة، وقفت أمام الباب وراحت تداعبه بها لعله يتحرك، ولما ظل ثابتًا ظنت أنه يعاندها؛ فاغتاظت، ونخزته بقوة، لكنه أيضًا لم يتحرك، لم تنتبه للحقيقة إلا عندما دفعته عن موضعه؛ فلم تتلقَّ منه أية مقاومة، هنا أدركت أن جريجور قد مات، حدقت فيه جاحظة عيناها، وهي تصرخ صرخة مكتومة، لم تمكث إلى جواره طويلًا، وفتحت باب غرفة النوم على مصراعيه، وصاحت في الظلام بأقصى ما عندها: «تعالوا وانظروا لقد نفق، إنه يستلقي دون حراك في مكانه، وقد نفق تمامًا».

جلس الزوجان باعتدال فوق فراشيهما، لم يستوعبا ما تقوله الخادمة بسهولة، ولم يحددا طبيعة الخبر، ورد فعل الخادمة إلا بعد فترة، غادر الزوجان السرير في نهاية الأمر بسرعة، كل من جانبه، لف السيد سامسا الغطاء حول منكبيه، ولم تكن السيدة سامسا ترتدي شيئًا سوى منامتها، ودخلا غرفة جريجور، وحين ذلك فتحت الأخت باب حجرة الجلوس؛ حيث إنه كان مكان نومها منذ مجيء المستأجرين، ترتدي كامل ملابسها، لم تبدلها منذ أمس، وبدا وجهها شاحبًا كأنها لم تنم البتة، تساءلت السيدة سامسا: «أمات؟» وعيونها معلقة بعيون الخادمة تنتظر إجابتها، كان من الممكن أن تتفحصه بنفسها لتتأكد، أجابت الخادمة: «نعم، هذا بالفعل ما قلته لكما» وأمسكت بالعصا ودفعت جريجور دفعة قوية لمسافة طويلة، أشارت السيدة سامسا كأنها تريد إيقاف المكنسة، «حسنًا» قالها السيد سامسا «والآن نحمد الله» ثم رسم علامة الصليب فوق صدره، ومثله فعلت النسوة الثلاث.

الأخت التي لم تبعد عينيها عن الجثة قالت مشفقة «انظروا إلى جسده الهزيل، إنه لم يكن يأكل شيئًا من فترة طويلة، فالطعام كان يخرج كما دخل له دون أن يُمس».

في الحقيقة إن جسد جريجور كان بالفعل هزيلًا وجافًّا، لكنهم لم يلحظوا ذلك إلا الآن، بعدما لم يعد قادرًا على الوقوف على قدميه.

طلبت الأم من الابنة أن تلحق بها، وابتسامة مرتبكة ترتعش فوق وجهها، ودون أن تسقط نظرها عن جريجور راحت الأخت تتبع والديها لغرفة النوم، وأغلقت الخادمة الباب، وفتحت النافذة على مصراعيها، ثمة نسمة هواء خفيفة هبت، إنها أواخر شهر مارس والجو ربيعي.

خرج المستأجرون الثلاثة من غرفتهم يدهشهم أن طعام إفطارهم لم يكن جاهزًا، وسأل المستأجر الأوسط الخادمة: «أين طعام الإفطار؟» طلبت منهم الخادمة الذهاب إلى غرفة جريجور، دون الالتفات إليهم، وقفوا ثلاثتهم واضعين أيديهم في جيوب ستراتهم حول جثة جريجور، وقد امتلأت بنور شمس النهار.

جاء صوت وراءهم: «اتركوا منزلي في الحال»، ثم ظهر السيد سامسا في زيه الرسمي متأبطًا ذراع زوجته من ناحية وذراع ابنته من ناحية أخرى، وكانت آثار الدموع ظاهرة على وجوههم تخبر أنهم بكوا حتى انتحبوا، والأخت تدفن وجهها في كتف والدها.

«اتركوا منزلي الآن» كررها السيد سامسا مرة أخرى، وما يزال بين ذراعي المرأتين، سأل المستأجر الأوسط: «ماذا تعني بذلك؟» بابتسامة متكلفة وذهول، بينما عقد الآخران أيديهما خلف ظهريهما في تأهب لشجار حادٍّ سيحدث.

«أعني ما أقوله» قالها السيد سامسا مجيبًا على سؤال المستأجر متقدمًا نحوهم في استقامة يتوسط الزوجة والابنة، وقف المستأجر مطرقًا رأسه يفكر فيما سيترتب على طردهم، وقال في تواضع وكأنه يريد بذلك عقد اتفاق جديد: «لنذهب إِذَنْ» ثم نظر إلى السيد سامسا كمن تعرض للإذلال يطلب عقدًا جديدًا، لكن الوالد رفض الأمر بحزم.

سار المستأجر من الصالة إلى الردهة في خطوات كبيرة، وكان صديقاه قد هَدَآ من تحفزهما، وبعدها مضيا خلف كبيرهما، وفي الصالة التقطوا قبعاتهم وعصيهم وانحنوا، ثم خرجوا من المنزل.

خرج السيد سامسا وزوجته وابنته إلى بسطة السلم يراقبونهم وهم يهبطون مطرودين يغيبون عن منعطفات السلم ثم يظهرون، ومع كل طابق يقل اهتمام الأسرة بهم، حتى غادروا، وهنا سارعت الأسرة لمغادرة السلم والعودة لمنزلهم شاعرين بالارتياح.

قرروا أن يمضوا يومهم مسترخين مرتاحين، وشعروا أنهم بحاجة ملحة للحصول على إجازة، جلسوا الثلاثة حول المائدة يكتبون ثلاث برقيات اعتذار: الأولى من السيد سامسا إلى مديره في العمل، والثانية من السيدة سامسا إلى زبائنها، والثالثة من الأخت إلى صاحب المتجر.

أثناء ذلك دخلت الخادمة لتخبرهم أن دوامها الصباحي قد انتهى، اكتفى الثلاثة بهز رؤوسهم دون رفع أبصارهم، وحينما ظلت الخادمة واقفة في تطفل منها لما يفعلونه؛ رمقوها بنظرة حنق، وسألها السيد: «والآن؟» ظلت الخدامة واقفة تبتسم لهم، وكأنها بطريقتها تلك تخبئ خبرًا سعيدًا، تتمايل ريشة النعام فوق قبعتها، هذه الريشة التي كانت تستفز السيد سامسا طوال فترة خدمتها، سألتها السيدة سامسا: «حسنًا، ماذا تريدين أن تقولي؟» أجابت الخادمة: «لقد تخلصت من جثة هذا الشيء، ووفرت عليكم عناء تدبير الأمر» قالتها وهي تضحك في أدب ورقة كأنها بالفعل صنعت معروفًا وجب عليهم أن يشكروها عليه.

لم يعتنِ أفراد الأسرة بكلامها، وحينما همت الخادمة بوصف كيف فعلت ذلك، أوقفها السيد سامسا بحزم رافعًا يده؛ فشعرت الخادمة بإهانة، وقالت على عجل: «وداعًا» ثم التفتت بعنف، وغادرت صافعة الأبواب صفعًا مرعبًا.

بعد ذهاب الخادمة أعلن السيد سامسا: «سوف تُسرّح مساءً» وكان الصمت جواب الابنة والزوجة، إنهما الآن يريدان راحة كاملة لا يشوبها غريب، نهضت الأم والابنة معًا، وتوقفتا عند النافذة متعانقتين، التفت إليهما السيد سامسا، راقبهما لبرهة، ثم طلب منهما الحضور لإنجاز مهامهما: «فلتأتيا هنا، اتركا الماضي، واهتما بأمري قليلًا» عادتا إلى أماكنهما سريعًا تلاطفانه، وأنجزتا كتابة الرسالتين.

غادر الثلاثة الشقة معًا، الأمر الذي لم يفعلوه منذ زمن، وركبوا الترام إلى خارج المدينة حيث الشمس تملأ الأرجاء، وجلسوا في العربة التي كانوا يستقلونها متكئين على مقاعدهم، يتدارسون إمكانيات المستقبل التي أبدًا لن تكون أسوأ مما مضى، حيث إن الوظائف الثلاث التي قرروا اللحاق بها ستكون نافعة وملائمة، وإن انتقالهم لشقة أصغر ستساعد في تحسن مستواهم سريعًا، فالشقة ستكون أرخص وأجمل، إضافة إلى أنها ستكون أفضل في الموقع عن الشقة التي كان قد اختارها لهم جريجور.

وبينما يتناقشون انتبه السيد والسيدة سامسا أن الابنة قد شحبت وجنتيها بفعل المحنة الأخيرة، إلا أنها لا تزال جميلة الوجه فائرة الجسد، ودون كلام وبدون وعي تقريبًا كانا متفقين على أنه قد حان الوقت للبحث عن زوج طيب للابنة الجميلة.

وكان نهوض ابنتهما قبلهما عند الوصول منتصبة القامة ممشوقة القوام بمنزلة شهادة استحقاق لأحلامهما الجميلة، ونواياهما الطيبة.

***